إبراهيم بن عمر السكران







دار الحضارة للنشر والتوزيع



مسلكيات

إبراهيم بن عمر السكران

دار الحضارة

١٤٣٥هـ

ح إبراهيم عمر السكران

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السكران، إبراهيم عمر

مسلكيات./ إبراهيم عمر السكران-الرياض ١٤٣٥هـ

ص ؛ ٠٠×٠٠ سم

ردمك: ٥ -٥٥٤١- ٠١- ٦٠٣- ٩٧٨-

١ -الوعظ والإرشاد ٢ - التربية الإسلامية ٣ - الأخلاق الإسلامية أ - العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٥/٥٩٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٥٩٥٠

ردمك: ٥ -٥٥٤١- ٠١- ٦٠٣- ٩٧٨-

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

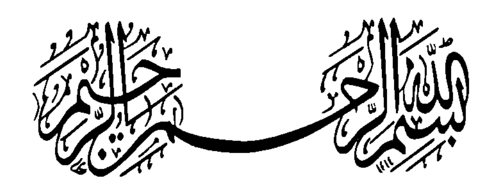
دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨



المحتويات

مـدخـل

الحمد لله وبعد، لفت انتباهي في كتاب الله كثرة اقتران مفردتي (العلم) و(الإيمان)، فجعلهما الله لقبًا علىٰ طائفة استشهد بكلامها فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦]. وأخبر عن رفعة من جمعهما فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ونبّهنا كيف يقود أحدهما إلىٰ الآخر فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]. وقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

وامتن الله علىٰ رسوله بهما سويًا فقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال أبو العباس ابن تيمية: **(فإن الخير كله، أصله وفصله، منحصر في العلم والإيمان)**[١].

---

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، ص(١/ ٣٧٢).

وفي هذا الكتاب الذي بين يديك حصيلة تمعّنات وتفحّصات في بعض مسالك (العلم)، وبعض مسالك (الإيمان)، دونتها في أزمان مختلفة، وأحببت موافقة الآية في الترتيب، فجعلت في هذا الكتاب القسم الأول لتأملات مسالك العلم، والقسم الثاني لتأملات مسالك الإيمان . .

المؤلف ..

iosakran@gmail.com

رجب ١٤٣٥هـ

القسم الأول

جسر التعب

إذا أخذت تتصفح (مفكرة المهام) الصغيرة أمامك، أو استخرجت من درج مكتبك أوراقًا عتيقة كنت قد رسمت فيها لنفسك (خططًا) علمية ودعوية، أو حتىٰ مهنية، سيثور مع غبار هذه الأوراق شيءٌ من الحزن وستشعر أنك ما زلت في أدنىٰ الوادي، بينما طموحاتك وأمنياتك وأحلامك ما زالت هي الأخرىٰ تعانق السحاب! وليس إلىٰ وصلها سبيل بعد . .

فكيف إذا حرث المرء ذهنه وتذكر طموحًا أجمل من هذه الطموحات كلها . . كطموح المرء أن يرافق محمدًا ﷺ في قصور الفردوس . . فيعيش مستقبله السرمدي مع تلك الكوكبة الراقية . .

ما السبب يا ترىٰ أن تلك الأحلام والخطط الجميلة، ركضت فوقها السنوات بحوافرها، حتىٰ بهت حبرها؛ ولم تتحقق بعد؟

الحقيقة أن تفسير الإخفاق، وتعثر الخطط والطموحات، له عوامل كثيرة، دلت علىٰ بعضها النصوص الشرعية، ودلت علىٰ بعضها الخبرة البشرية الهائلة اليوم في علوم الإدارة والتخطيط

والنجاح، وخصوصًا المعرفة الإدارية المبرهنة تجريبيًا/إمبيريقيًا . .

ولكن ثمة عاملٌ له في نفسي حفاوةٌ خاصة، عامل يفسر كثيرًا من فشل الطموحات والأحلام . . هذا العامل بكل اختصار: هو أن الخطط فوق الصخور والأرجل ما زالت ناعمة ما حفيت بعد . .

ما زال في كثير من النفوس وهم مطمور أنه يمكن أن يبلغ المرء المجد وهو لم يكابد المشاق ويلعق الصبِر . .

لقد ركّب الله في هذه الحياة أن (معالي الأمور) التي نص عليها القرآن، كالرسوخ في العلم، وإظهار الهدىٰ ودين الحق علىٰ الدين كله، والتمكين في الأرض، وإصلاح الأمة، ونحوها من المطالب الكبرىٰ لا تحصل للمرء وهو مستكملٌ راحته وطعامه وشرابه ونومه وأوقات استرخائه . . هذه حقيقة دلّ عليها الشرع وصرخت بها تجارب الحياة . .

إذا كان المرء ينام حتىٰ تُجهركَ أشعة الحمرة في عينيه، ويبسط خوان الطعام كلما اشتهىٰ، ويخصص الأوقات الطويلة للقهوة والشاي والعصائر والفطائر، ولا يسمح لنفسه بأن تتنازل عن أي فرصة فسحة أو مسامرات مع أصحابه، ولا يستطيع كبح جماح تصفح الإنترنت أن يسرق ساعاته، إذا كان المرء كذلك . . وما زال يرجو أن تتحقق يومًا ما خططه العلمية والدعوية والإصلاحية؛ فمثل هذا الشخص قد استأصل عقله، وزرع بدلًا منه مصباح علاء الدين!

معالي الأمور، والطموحات الكبرىٰ، في العلم والتعليم

والتأليف والإصلاح والتغيير والنهضة بالأمة؛ لا تكشف وجهها لك، حتىٰ تمسح العرق عن جبينك بيدٍ ترتعش من العناء . .

كنت أتحدث مرةً مع أحد أقراني الناشطين في ميدان (التربية الدعوية)، فقال لي: ما وجهة نظرك في أكبر مشكلة تهدد المحاضن التربوية مع هذه المتغيرات والتحديات الفكرية الجديدة؟ فقلت له بقناعة تحفر أخاديدها في عقلي: صدقني يا أبا فلان، دع عنك كل هذه الانحرافات الفكرية، فليست بشيء، أخطر مشكلة تهدد التربية الدعوية (نقص الجدية).

في بيئةٍ يغلب عليها ضجيج اللهو وخفة المرح وقهقهات الفكاهة . . أتُراها يمكن أن تنتج مُسنَدًا أو مدونةً أو مَعْلَمَةً أو معجمًا؟! منطق الحياة يأبىٰ ذلك . . والعلم جعله الله ثمينًا لا يُجلب في الأسواق المخفضة . .

سل من شئت من أهل العلم المبدعين، ونقّب في السيرة الذاتية لمن يأسرك تدفقه بالعلوم وستجد في كل هذه الشخصيات أن المتضرر الأكبر في حياتهم هو النوم والطعام والشراب والترفيه . .

خططنا في شواهق الجبال . . وما زالت أقدامنا غضة طرية! بل . . ونتوهم أنه في يومٍ من الأيام ستهبط النتائج بلا مقدمات . .

خذ مثلًا . . ما أكثر ما تجد عند طلاب العلم والباحثين (مسوّدة كتاب أو مؤلَّف) لم يتجاوز تقسيم الموضوع والعناصر، وبعض الشواهد والنصوص والملاحظات المهمة، وتسري عليه

السنون، تزاور الشمس عن يمينه وشماله .. ولم ير النور بعد، ولا أظنه سيراها .. طالما أن فضول النوم، وفضول الطعام والشراب، وفضول الترفيه، وفضول الخلطة، وفضول الحديث والكلام، وفضول النظر؛ قد استكملت أوقاتها وأخذت نصيبها غير منقوص ..

وهكذا تجد في عزم كثير من الناس شُعَبًا من الخير والإنجاز والإنتاج .. لكنها لم تتجاوز بعد مرحلة (المشروع) ..

بل خذ أمرًا من شؤون الدنيا ذاتها .. ما أكثر ما تجد شابًا يحدث نفسه، وأهله، وأصدقاءه؛ عن عزمه علىٰ البدء بمشروع تجاري في غضون «الأيام القادمة» .. ومع ذلك تمضي السنوات وما زالت هذه «الأيام القادمة» التي يحدثك عنها لم تأت بعد! لأنه لم يستطع التخلي عن حصص الترفيه والراحة والسهرات من برنامجه اليومي!

لما كان الإمام مسلم بن الحجاج يصنف كتابه «الصحيح» الذي هو أحد مفاخر هذه الأمة، وبلغ -رحمه الله- أحاديث الصلاة، وبلغ منها تحديدًا أحاديث مواقيت الصلاة، جاء لحديث عبد الله بن عمرو المشهور في تحديد أوقات الصلاة، وكان هذا الحديث جاء بروايات متفرعة متعددة، فرتبها ترتيبًا حسنًا استوعب اختلاف الطرق فيها عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو، فلما رأىٰ رحمه الله صنيعه هذا أراد أن يوصل رسالة لقارئ كتابه أن هذه النتيجة الحديثية التي توصل إليها في حديث عبد الله بن عمرو لم تأت إلا بالعناء المضني، فأخرج بعدها أثرًا عن الإمام

الحافظ يحيىٰ بن أبي كثير (ت١٢٩هـ) يقول فيه:

(حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ التميمي، قال أخبرنا عبد الله بن يحيىٰ بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم»)[١].

وموطن العجب هاهنا أن الإمام مسلم لا يخرج في كتابه إلا أحاديث مرفوعة عن النبي ﷺ هذا شرطه في الكتاب من حيث الأصل، فكيف روىٰ هذا الأثر عن إمام من صغار التابعين، يتحدث فيه عن التعب في العلم، ووضعه بين أحاديث الصلاة؟

يقول القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) في كتابه إكمال المعلم:

(فكثيرٌ من يسأل عن ذكره هذا الخبر في هذا الموضع وليس منه، ولا هو من حديث النبي ﷺ ولا من شرط الكتاب، فقال لنا بعض شيوخنا: إن مسلمًا رحمه الله أعجبه ما ذكر في الباب، وعرف مقدار ما تعب في تحصيله وجمعه من ذلك، فأدخل بينها هذا الخبر تنبيهًا علىٰ هذا، وأنه لم يحصِّل ما ذكر إلا بعد مشقة وتعب في الطلب، وهو بيِّن، والله أعلم)[٢].

واضح جدًا أن هذه العبارة التي قالها الإمام يحيىٰ بن أبي كثير **(لا يستطاع العلم براحة الجسم)** أنها كانت ذات وقعٍ في نفس

---

(١) صحيح مسلم (٦١٢).

(٢) القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق د. يحي إسماعيل، دار الوفاء، ص(٢/ ٥٧٧).

الإمام مسلم، وكأنه كان يستحضرها بشكل خاص، فالعبارات التي تهيج النفس علىٰ الجلد والدأب والمثابرة في العلم كثيرة، لكنه اختار من بين هذه النصوص عبارة الإمام يحيىٰ بن أبي كثير هذه **(لا يستطاع العلم براحة الجسم)** لأن لها في نفسه أثرًا أقرب إلىٰ روحه كما يبدو ..

ومن تأمل في ضخامة العلم، وقصر العمر، وكثرة متطلبات الحياة؛ أدرك حقًا أن عبارة الإمام يحيىٰ بن كثير هذه **(لا يستطاع العلم براحة الجسم)** أنها: لم تخرج من طرف الذهن .. ولم تكتب بحبر الأدب .. وإنما حُفِرت حروفها بإزميل التجارب ..

ما أكثر ما رأيتُ عالمًا شابًا بزّ أقرانه يتدفق بالأسانيد والمسائل .. أو رأيت عملًا علميًا رصينًا صار أصلًا في بابه .. إلا قلت في نفسي: رحم الله يحيىٰ بن أبي كثير حين قال: **(لا يستطاع العلم براحة الجسم)**.

وهذا التعب الذي يجب تحمله ومكابدته لا يختص بمطلب دون مطلب، بل هو عام في (الكمالات الإنسانية) كلها، كما يقول ابن القيم: **(الكمالات كلها لا تُنال إلا بحظ من المشقة، ولا يُعبر إليها إلا علىٰ جسر من التعب)**[1].

وأعظم المتعبين ثمرةً أولئك الذين أنفقوا تعبهم باتجاه المستقبل الأبدي، وقد قال ابن القيم رحمه الله: **(هيهات! ما**

---

(١) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، تحقيق عبد الرحمن قائد، نشر مجمع الفقه، ص(٢/ ٨٩٥).

وصل القوم إلىٰ المنزل إلا بعد مواصلة السرىٰ، ولا عبروا إلىٰ مقر الراحة إلا علىٰ جسر التعب)[1].

ومن المهم أن يلاحظ المرء (حكمة الله) في هذه العلاقة بين (التعب والإنجاز) كما أشار لذلك ابن القيم حين شرح مسائل القدر الكوني وحكمة الله فيه فقال:

(يوضحه الوجه الحادي والعشرون: أنه قد استقرت حكمته سبحانه أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل إليها إلا علىٰ جسر المشقة والتعب، ولا يُدخل إليها إلا من باب المكاره والصبر وتحمل المشاق)[2].

وهذه العلاقة بين (التعب والإنجاز) ليست معنىٰ شرعيًا يختص بالأمم التي بلغها الوحي، بل هو معنىٰ تستنتجه العقول فور معاركتها الحياة .. وأول من رأيته نبّه علىٰ تواطؤ الثقافات علىٰ هذا المعنىٰ بعبارة بديعة جدًا، الإمام الحافظ الزاهد أبو إسحاق إبراهيم الحربي (٢٨٥هـ)، صاحب الكتاب المشهور تاريخيًا عن (غريب الحديث)، وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل، حيث نقل عنه ابن تيمية عبارة تهز النفوس مما فيها من البلاغة وهيبة المعنىٰ، إذ يقول ابن تيمية: **(قال إبراهيم الحربي: «أجمع عقلاء**

---

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، تحقيق علي العمران، نشر مجمع الفقه، ص(٣/ ١١٨٧).

(٢) ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق الحساني عبد الله، دار التراث، ص(٤٤٨).

كل أمة علىٰ أن النعيم لا يُدرك بالنعيم)»[1].

وهذه العبارة التي حكاها ابن تيمية، رواها الخطيب البغدادي في تاريخه عن إبراهيم الحربي بصيغة مختلفة قليلًا، وتحدث فيها ابراهيم الحربي بأمور عن نفسه في غاية العجب، ليس في كونه يتحمل المشاقّ فقط، بل في معنىٰ أدق، وهو كونه لا يأبه بها ولا يلتفت إليها، حيث جاء في تاريخ الخطيب قول الحافظ إبراهيم الحربي رحمه الله:

(أجمع عقلاء كل أمة أنه من لم يجرِ مع القدر لم يتهنّأ بعيشه، كان يكون قميصي أنظف قميص وإزاري أوسخ إزار، ما حدثت نفسي أنهما يستويان قط، وفرد عقبي مقطوع، وفرد عقبي الآخر صحيح، أمشي بهما وأدور بغداد كلها، هذا الجانب وذلك الجانب، لا أحدث نفسي أني أصلحها، وما شكوت إلىٰ أمي، ولا إلىٰ أختي، ولا إلىٰ امرأتي، ولا إلىٰ بناتي قط: حُمّىٰ وجدتها، الرجل هو الذي يدخل غمّه علىٰ نفسه، ولا يَغُمّ عياله، كان بي شقيقة خمسًا وأربعين سنة ما أخبرت بها أحدًا قط، وأفنيت من عمري ثلاثين سنة برغيفين، إن جاءتني بهما أمي أو أختي أكلت، وإلا بقيت جائعًا عطشان إلىٰ الليلة الثانية)[2].

---

(١) ابن تيمية، **قاعدة في المحبة**، مطبوعة ضمن جامع الرسائل، تحقيق محمد رشاد سالم، ص(٢/ ٣٩٣)

(٢) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب، ص(٦/ ٥٢٢).

وبكل صراحة فإن مثل هذا النمط من الاشتغال بالمطالب العالية والإعراض التام عن الالتفات للمشاق والاكتراث بالتعب؛ نمط استثنائي لا أظن يطيقه إلا النوادر في التاريخ ..

وهذه العبارة للحافظ إبراهيم الحربي رحمه الله شاع معناها في من جاء بعده من أهل العلم، فتتابعوا علىٰ تأكيد تجريبية وعقلانية هذا المعنىٰ، وتداوله بين الأمم، حتىٰ قال ابن القيم في تأثر واضح بعبارة إبراهيم الحربي: **(العقلاء قاطبة متفقون علىٰ استحسان إتعاب النفوس في تحصيل كمالاتها، وكل من كان أتعب في تحصيل ذلك؛ كان أحسن حالًا وأرفع قدرًا)**[1].

إذا كنتَ في مسجد حيِّكم القريب، تدور بين سواريه خاليًا تتحفظ متنًا من متون العلم .. أو كنتَ في ركن قصي من مكتبتك الشخصية والمراجعُ منشورةٌ بين يديك، مطويةٌ زواياها، وقد غصصت في منتصف البحث .. أو كنت واقفًا في مهمة دعوية تراوح بين قدميك .. ثم داهمك النعاس، أو تلقيت رسالة من بعض أصدقائك يعرض عليك مشروع نزهة؛ فما أكثر ما ترىٰ المرء في مثل هذه الحالة يضعُف ويتخلخل تركيزه وتحدِّثُه نفسه بالراحة .. لكن بالله عليك تذكّر قول إبراهيم الحربي: **(أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم)** وسترىٰ كيف تتراقص همتك مجددًا

---

(١) ابن القيم، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، تحقيق الحساني عبد الله، دار التراث، ص(٤٤٩).

وتقبل علىٰ شأنك، وترمي وساوس الراحة وراء ظهرك . .

ولا يقتصر التعب والجهد في الوصول إلىٰ أعلىٰ مطلب وهو الجنة والسلامة من النار، أو المطالب الشريفة كالعلم والإيمان وإطعام المساكين والإصلاح المجتمعي، بل حتىٰ اللذائذ الدنيوية التي يطلبها الناس كالمال والصيت والمنصب الخ، فإنها أيضًا تتطلب العبور علىٰ جسر التعب، كما قال ابن تيمية: **(لذات الدنيا لا تُنال غالبًا إلا بنوع من التعب)**[1].

والحقيقة أن من أعظم ما يعين النفس علىٰ تحمل هذا التعب الذي تتطلبه المعالي؛ أن يستحضر المرء الثمرة، وأن يستدعي في ذهنه حسن العاقبة، فإن الجدوىٰ والمكتسب تهوّن علىٰ النفس تحمل المشاق والتعب، كما يقول ابن الجوزي في استعارة مكثفة: **(تلمّح فجر الأجر يهُن ظلام التكليف)**[2].

وقد شاع بين أهل العلم ربط كمية المنجزات بكمية العناء، ومن ذلك العبارة المتداولة بين أهل العلم التي يقولون فيها: **(بقدر ما تتعنىٰ تنال ما تتمنىٰ)**[3].

حسنًا . . هذه العلاقة بين (التعب والنجاح)، هل جاءت الإشارة إليها في القرآن والسنة النبوية؟

---

(١) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٢٠/ ١٤٦)

(٢) ابن الجوزي، **المدهش**، دار الكتب العلمية، ص. ٢٩٥

(٣) انظر مثلًا: **نشر طي التعريف** للحبيشي ص(١٨٤)، **نفح الطيب** للمقري ص(٢/ ٢٢٩).

نعم، جاءت إشارات كثيرة لهذه العلاقة، من أهمها ذلك التصوير النبوي الأخاذ إذ قال ﷺ في جملة مكثفة بيانية جميلة: **(حُفّت الجنة بالمكاره)**[1].

فالجنة لا يوصل إليها إلا بمكابدة ما تكرهه النفوس من ترك الهوىٰ والشهوات . .

وفي تصوير نبوي آخر في غاية الجمال الأدبي رسم النبي ﷺ مشهد المؤمن وهو يتحمل الكلفة والجهد بقوله: **(الدنيا سجن المؤمن)**[2].

وإذا قارنت بين تصوير القرآن لأهل الجنة، وتصوير القرآن لأهل النار؛ تلاحظ كيف يذكر القرآن أن أهل الجنة ازدحموا فوق جسور التعب في الدنيا، وأهل النار استرسلوا مع الراحة والنزوة . .

تأمل -مثلًا- كيف يذكر الله تقليل أهل الجنة لنومهم في الدنيا وسهرهم في عبادة الله، كما قال الله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ **[الذاريات: ١٦-١٧]**.

وقول الله عن قلة نوم سادات الصحابة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ **[المزمل: ٢٠]**

وقول الله لنبيه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **[المزمل: ٢]**.

بالله عليك أعد تأمل هذه الآيات «قليلًا من الليل ما

---

(١) صحيح مسلم: (٢٨٢٢)

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٥٦)

يهجعون»، «قم الليل إلا قليلا» ونحوها، وقارن ذلك بوسائدنا التي تقوست من نوم الليل والنهار ..

إنها المعالي تحتاج المكابدة ..

وفي مقابل أهل الجنة، قارن نمط معيشة أهل النار لما كانوا في الدنيا وكيف يصورها القرآن؟ يقول الله عن أهل الشمال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

ولذلك فإن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة استقبلتهم الملائكة بالتهاني والترحيب بألفاظ تشير إلىٰ هذا المعنىٰ كما قال الله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

فلاحظ كيف جعلت الملائكة العبارة الترحيبية «بما صبرتم» بما يشير لأمور تخالف الراحة حملوا أنفسهم عليها ..

ومن أعظم مصادر معرفة هذه المعنىٰ تدبر أخبار وقصص الأنبياء في القرآن، وما عانوه مع أممهم، انظر -مثلًا- كيف لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وكيف كان يستثمر كل الأوقات الممكنة في دعوتهم كقول نوح ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [سورة نوح: ٥]

وقوله أيضًا: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [سورة نوح: ٨-٩].

وفوق هؤلاء كلهم، العناء والأهوال التي كابدها سيد ولد آدم

محمد ﷺ حتىٰ مكّن الله له، ولخص ابن القيم جزءًا من المشهد بقوله:

(وكما دخل رسول ﷺ إلىٰ مكة ذلك المدخل العظيم، بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز، بعد أن قاسىٰ مع أعداء الله ما قاساه . . ، وبالجملة: فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة)[1].

وبسبب تجريبية وعقلانية هذا المعنىٰ، وكون الناس يدركونه من مجالدة كبَد الدنيا، فقد تنافس الشعراء في تجسيد هذا المعنىٰ في أبيات سائرة، ومن ذلك قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ) في قصيدته الشهيرة في فتح عمورية:

(بَصُرت بالراحة الكبرىٰ فلم ترها
تُنال إلا علىٰ جسر من التعبِ)[2].

بل إن أبا تمام قابل مقابلة بديعة بين نوعين من النوم، لا يحصل أحدهما إلا بهجر الآخر! كما قال:

(ولم تُعطِني الأيام نومًا مُسكّنًا
أَلَذُّ به؛ إلا بنوم مشرّد)[3].

فحتىٰ النوم الهانئ لا يحصل للمرء إلا بساعات أخرىٰ يعاني

---

(١) ابن القيم، **إغاثة اللهفان**، تحقيق محمد عزير شمس، نشرة مجمع الفقه، ص(٢/ ٨١٧).

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب، ص(١/ ٤٩).

(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب، ص(١/ ٢٤٥).

فيها هجر النوم! وأقرب صورةٍ لهذا الذي ذكره أبو تمام هي صورة (النوم بعد الإنجاز) فإن له مذاقًا لا يعدله نوم البطالة العمر كله ..

ثم جاء المتنبي (ت٣٥٤هـ) بعد أبي تمام، ونحت هذا المعنىٰ في صورٍ متعددة في منتهىٰ البراعة الأدبية، حيث أشار المتنبي أن هذه المشاقّ وألوان التعب والعناء هي التي أصلًا صنعت الفروق بين الناس في المجد والمعالي، وإلا لاستووا، كما يقول المتنبي:

(لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يُفقِر، والإقدام قتّالُ)[1].

وأقام المتنبي في بيت من عيون الشعر علاقة عكسٍ وتضاد بين النفس والبدن، وأن النفس إذا كانت همتها عالية أتعبت البدن، وإذا انخفضت الهمة ارتاح البدن!، كما يقول المتنبي:

(وإذا كانت النفوس كبارًا
تعبت في مُرادها الأجسامُ)[2].

وفي بيت آخر نسج المتنبي هذا المعنىٰ بتشبيه أخاذ، وهو أنه برغم أن النحل يدافع عن بيوته بلسع من يقترب منه فإن الناس تغامر لتجني العسل وتتمتع بحلاوته، وهكذا طموحات الحياة، كما يقول المتنبي:

---

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت، ص(٤٩٠).

(٢) ديوان المتنبي، دار بيروت، ص(٢٦٠).

(تريدين لقيان المعالي رخيصة

ولا بد دون الشهد من إبر النحل)[1].

وشواهد هذا العلاقة بين (التعب والنجاح) لا يمكن حصرها، في النصوص الشرعية والأدبية، وفي ثقافات الأمم الأخرىٰ، ولكن تبقّىٰ فقط احتراز من لبس في الفهم قد يقع لبعض الناس، أو قد يتساءل عنه البعض، وهو: هل هذا يعني أن الإنسان يبحث عن التعب والنصب؟ أليس هذا يخالف تيسير الإسلام وأن المشقة تجلب التيسير؟

وهذا سؤال مهم، ولكشف مكمن الإشكال فيه يجب التمييز بين مستويين للمشقة دلت عليهما النصوص: أولهما **(المشقة المعتادة التبعية)** والثاني **(المشقة المقصودة بالأصالة)**.

فأما المشقة المعتادة التبعية، أي التي تكون تابعة للعبادة، ولازمة لها، ولا يمكن التخلص منها؛ فهذه يحمد للإنسان أن يتحملها ويجاهد نفسه عليها، ويكون الأجر علىٰ قدر مصلحة العبادة ومنفعتها.

وأما المشقة المقصودة بالأصالة، فهي مشقة منفصلة عن العبادة، يتكلف الإنسان وجودها، ويستدعيها، فليست في مصلحة العمل ولا منفعته، وهي مشقة خارجية عن أصل العبادة، فهي قدر زائد، فهذه مشقة مذمومة لا يحمد للمرء أن يستدعيها ويتكلفها.

---

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت، ص(٥١٨).

وقد دلت علىٰ هذا التقسيم النصوص، فـ(المشقة المعتادة التبعية) المحمود تحملها كقوله ﷺ لعائشة في العمرة **(أجرك علىٰ قدر نصبك)**(١). فنص النبي علىٰ ربط الأجر بحجم التعب الذي يكون في مصلحة العبادة ومنفعتها.

وذكر الله الأجر علىٰ «التعب والجوع والعطش»، ثلاثتها في قوله تعالىٰ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

بل حتىٰ تعب تلاوة القرآن الذي يحصل لمن يعانون صعوبات لغوية له أجر خاص، كما قال ﷺ: **(والذىٰ يقرأ القرآن، ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق؛ له أجران)**(٢).

وأما التعب والنصب الذي يتكلفه الإنسان ويستدعيه، وليس في مصلحة العبادة ومنفعتها، فيكون قدرًا زائدًا علىٰ ما تحتاجه العبادة؛ فهذا مذموم، وجاءت فيه نصوص، ومن ذلك أن النبي ﷺ **(رأىٰ شيخًا يُهادىٰ بين ابنيه، فقال: «ما بال هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي، قال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني»، وأمره أن يركب)**(٣).

---

(١) البخاري (١٧٨٧)، مسلم (١٢١١)، بنحوه.

(٢) مسلم (١٨٩٨).

(٣) البخاري (١٨٦٥).

فهذه مشقة يتكلفها المرء، وليست تابعةً للعبادة، أو لازمة لها، فهي غير محمودة.

ومثل هذا حديث عروة بن مضرس المشهور، وهو من أصول المناسك، وفيه أنه قال:

(أتيت رسول الله ﷺ بالموقف، يعني بجمع، قلت: جئت يا رسول الله من جبل طيء، أكللت مطيتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من حبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ «من أدرك معنا هذه الصلاة، وأتىٰ عرفات، قبل ذلك ليلا أو نهارا، فقد تم حجه، وقضىٰ تفثه»)[1].

فإذا ضم الباحث جواب رسول الله ﷺ لعروة بن مضرس، إلىٰ جواب رسول الله لعائشة؛ استبان له أن النصب والتعب المحمود ما كان معتادًا تابعًا للعبادة لازمًا لها، دون ماكان خارجًا عنها متكلفًا.

وقد نبّه كثير من أهل العلم علىٰ هذا التمييز، كما قال أبو العباس ابن تيمية:

(فكثيرًا ما يكثر الثواب علىٰ قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصودٌ من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، هذا في شرعنا الذي رُفِعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج، ولا أريد بنا فيه العسر، وأما في شرع

---

(١) أبو داود (١٩٥٠).

من قبلنا قد تكون المشقة مطلوبة منهم)[1].

وهذا التميز بين مستويات المشقة هو تنبيه احترازي فقط لدفع لبس محتمل، وليس من أصل موضوعنا، وإنما أصل الموضوع أنني صرت أرىٰ في نفسي، وفي كثير من إخواني من حولي؛ أننا نفكر ونخطط لأحلام وأمنيات وطموحات كبرىٰ في العلم والدعوة والإصلاح والنهضة بالأمة، ولكن الحال التي نعيشها وما فيها من الرفاه واستكمال الراحة، وفضول النوم، وفضول الحديث والكلام، وفضول الطعام والشراب، وفضول الترفيه، لا تنسجم مع هذه الطموحات الكبرىٰ، وأخشىٰ إن لم نبادر عاجلًا بالصعود إلىٰ جسر التعب أن نصطدم يومًا بتصرم العمر دون تحقق شيء من تلك الطموحات، وما أقسىٰ خيبة نهاية النفق . .

اللهم ارحم الإمام يحي بن أبي كثير إذ قال: **(لا يستطاع العلم براحة الجسم)**

وارحم يا الله إبراهيم الحربي إذ قال: **(أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم)**.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، ص(١٠/ ٦٢٢)

مأزق المترقِّب

واضعًا يده علىٰ ذقنه يتفرج باهتمام بالغ علىٰ مشروعات العلم والدعوة والثقافة والحقوق تتسابق فعالياتها بين ناظريه .. هو يعرف أسماءها جيدًا .. وفي أيام مضت تواصل مع بعض رجالات الإنتاج في هذه المشروعات .. بل له الآن علاقات طيبة مع بعضهم .. وبحوزته أيضًا رقم الهاتف الخاص لبعضهم .. كما أن أحدهم دعاه يومًا لمجلس ضم بعض هؤلاء المنتجين .. بل هو لا يزال يتذكر أنه أرسل لبعضهم رسالة جوال أو بريد إلكتروني ورد عليه .. لكنه إلىٰ الآن ليس جزءًا من أي مشروع .. ولم يبدأ الخطوة الثانية في أي حلم سبق أن فتح له ملفًا في جهازه المحمول ..

هذه أزمة الإنسان المترقب .. الذي تململت من جلوسه مدرّجات المتفرجين .. وما زال متفرِّجًا ..

الإنسان المترقب قد يكون يهرول في ميعة العمر، ويحرق سنواته الذهبية بلا مبالاة .. ينفث الدقائق والساعات كما ينفث المدخّن صحته في الهواء غير مكترث ..

الإنسان المترقب حدث تحول مهم في حياته، كان يتابع الجدل والردود المتبادلة ونقائض التيارات عبر المنتديات الإلكترونية، ثم صار اليوم يتابعها عبر شبكات التواصل، هذا كل ما في الأمر ..

الإنسان المترقب قد يكون في المسجد يراجع حفظًا أو يذكر الله .. فتنسلّ يده لجواله وينقر أيقونة شبكات التواصل .. ويخرج من المسجد وهو فيه .. أتىٰ إلىٰ المسجد لتغتذي روحه العطشىٰ لذكر الله .. لكنه دخل المحراب بجسده ثم قذف بروحه في العراء خارج الأسوار ..

هل هذا يعني أن الإنسان المترقب هو كائن معزول الإحساس بالزمن؟ هل المترقب عديم الأحلام والطموحات؟ لا، بل هو يتحرّق كثيرًا ويتمنىٰ أن يصنع شيئًا لنفسه وللآخرين، ولكنه واقف كالمشلول .. لماذا؟ المترقب ذاته لا يدري ..

حين يكون المترقّب في مجلس ذكر عن قيام الليل تشتعل همته للمناجاة في هزيع السحر، وحين يكون المترقب يستمع لدرس عن فضل العلم ومناقب المعرفة يكاد يمضغ ذاته حماسةً ويتخيل نفسه قد حبس عليه غرفته بين أرفف مكتبته .. لكن ما إن يتجاوز لهيب الحماسة حتىٰ يتبدد كل شيء ويعود لذات برنامجه اليومي في التفرج علىٰ المنتجين ..

لدىٰ المترقب مشكلة يمكن تسميتها مشكلة «ترحيل المهام» فحين كان المترقب في المرحلة الثانوية كان يحدّث نفسه بأنه إذا

انتقل للجامعة وصار له استقلال وحرية أكبر فسيبدأ مشروعات علمية وعملية .. ولما بدأ الدراسة الجامعية صار يقول لنفسه: متىٰ ينتهي ضغط المذكرات والبحوث وتحضير المحاضرات والاختبارات وتبدأ مرحلة المهنة وأتفرغ لمشروعاتي العلمية والعملية؟! وهو يقولها صادقًا، ولما بدأت مرحلة المهنة أصبح يقول لنفسه: بعدما أنتهي من هم الزواج والمسكن والاستقرار المادي سأبدأ بإذن الله تنفيذ خططي وأحلامي العلمية والعملية، ثم انخرَط في مسؤوليات الأسرة والأبناء ومتطلبات المهنة، حتىٰ طوّح به العمر خارج الموسم الذهبي للإنتاج .. وصار يقول لنفسه: ذهب وقت التحصيل والبناء «وهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر» .. وهكذا أحرق المترقّب عمره عبر آلية «ترحيل المهام» ..

يشتكي البعض ويقول أن شبكات التواصل أو تصفح الإنترنت جذّاب ويشغلني عن مشروعات علمية كثيرة، ربما يكون هذا الكلام يتضمن توصيفًا دقيقًا للمشكلة، ولكن لي رأي آخر، رأيي أن كثيرًا من الملهيات عن العلم والعمل ليست جذابة أصلًا، وإنما هي في حقيقتها وسيلة «هروب نفسي» عن المهام الواجبة .. ألا ترىٰ أنك أيام الاختبارات تدع المذكرات وتقرأ بعض الكتب التي كنت منشغلًا عنها خارج الاختبارات؟ ألا ترىٰ أنك إذا بدأت بكتاب في علم معين، صارت نفسك تحدثك بمطالعة كتاب في علم آخر لم تكن لتطالعه قبل ذلك؟

صحيح أن حالة التفرج والترقب هذه فيروس خطر يهدد حياة

كل واحد منا، لكن الشاب الذي يعيش المرحلة الذهبية للتحصيل العلمي هي في حقه أفظع وأكثر خطورة، فقد أصبح كالمزارع الذي نام علىٰ البذور حتىٰ فات الموسم .. فالمرحلة الذهبية للتحصيل العلمي هي مرحلة الذروة في قوة الملكات .. وأي غبن أن تبدأ المعركة بعد أن تخور قواك ..

ومن تأمل الليل والنهار الذي نعيش فيه، وكيف نتقلب في أيامه، ثم رأىٰ قسم الله سبحانه بهذا الزمن ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ امتلأ قلبه بإدراك شرف «الزمن» .. وأنه في كل ثانية ودقيقة وساعة ينفق من (رصيد زمني) منحه الله إياه وكتبه الملك حين كان جنينًا عمره أربعة أشهر .. لا شيء ساكن في حياتك .. أنت في كل لحظة تنفق من رصيدك الزمني .. فإما أن تشتري به علمًا وعملًا رابحًا .. أو يذهب في الترقب والتفرج في صفقة خاسرة ..

وأزمة الخسارة والغبن في استثمار هذا الرصيد الزمني هو الذي أشار له الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: (**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**)[1].

ويبدو أن هذه الأزمة، أعني أزمة الترقب والتفرج قريبة من (الحالة السبهللية) التي وصفها الفاروق عمر بن الخطاب في الأثر المروي عنه: (**إني أكره الرجل يمشي سبهللا، لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الآخرة**)[2].

---

(١) البخاري (٦٤١٢).

(٢) ذكره: أبو عبيد، **الأمثال**، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، نشرة جامعة الملك =

وجاء هذا المعنىٰ في كتب الأثر مسندًا عن ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: (**إني لأمقت الرجل أن أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة**)[1].

وهناك منظومة في الفقه مطوّلة مشهورة لابن عبد القوي رحمه الله، نظم فيها المقنع لابن قدامة كاملًا في زهاء اثني عشر ألف بيت، وقد جمع ابن عبد القوي فيها في بيت واحد حديث البخاري وأثر عمر المشهور، حيث قال رحمه الله:

ولا يذهبنّ العمر منك سبهللا
ولا تغبننّ النعمتين، بل اجهدِ[2]

ومن أكبر عوامل «الحالة السبهللية» ما يمكن تسميته مشكلة «التقطع والترحل» في أنصاف المشروعات .. وهذا أمرٌ قد نبّهت عليه المدونات المشهورة في أدب الطلب، ومن ذلك قول بدر الدين ابن جماعة (ت٧٣٣هـ): (**وكذلك يحذر من التنقّل من كتاب إلىٰ كتاب من غير موجب، فإنه علامة الضجر وعدم الإفلاح**)[3].

ولعلك تتذكر أن العلامة ابن عثيمين يمثل مشروعًا فقهيًا مكتملًا .. فبالله عليك لاحظ كيف يشرح فكرة نبعت من خبرته

= عبد العزيز، ص(٢٥٦)؛ ابن الأثير، **النهاية**، تحقيق رائد صبري، بيت الأفكار، ص(٤١١)؛ وانظر تعليق الزيلعي عليه في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٥٣).

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٥٦٢).

(٢) ابن عبد القوي، **عقد الفرائد وكنز الفوائد**، نشرة محمد الجميح، ص(٢/ ٣٩٨).

(٣) ابن جماعة، **تذكرة السامع والمتكلم**، تحقيق السيد الندوي، دار رمادي، ص(١٧٣).

الطويلة حيث يقول في كتابه الذي جمعه من خطبه وسماه الضياء اللامع:

(وإن من الحكمة أن من ابتدأ بعمل وارتاح له فليستمر عليه، فمن بورك له في شيء فليلزمه، وبعض الناس يبدأ الأعمال ولا يتممها، فيمضي عليه الوقت سبهللا من غير فائدة، فمثلا يقرأ في هذا الكتاب أو في هذا الفن، ثم يدعه من غير أن يكمله، وينتقل إلىٰ غيره، ثم إلىٰ آخر، من غير تكميل الأول، فيضيع عمله وينقضي عمره بلا فائدة، وكذلك في الأعمال الأخرىٰ كل يوم له عمل، وكل يوم له رأي، فيضيع الوقت عليه من غير فائدة).

هذه حكمة عصرتها الخبرة يشرحها فقيه حدد هدفًا علميًا رفيعًا وبلغه فعلًا .. وليست نظرية يتاجر بها منتسب لعلم النجاح في قاعات الفنادق ..

ومن الظواهر المثيرة للغرابة فعلًا، أن أزمة المترقب لم تعد مقتصرة علىٰ إحراق الوقت في متابعة الجدليات والمناقضات عبر شبكات التواصل، بل أصبحت مثل هذه المماحكات التويترية مادةً للحديث في بعض مجالس الأخيار، رد فلان علىٰ فلان بتغريدة قوية، وتفكّه فلان علىٰ فلان بتغريدة مضحكة، وقصف فلان جبهة فلان، وهكذا، يا ضيعة الأعمار .. ويا سقىٰ الله أيامًا كان المجلس فيها نقاشًا عن ترجيحات ابن تيمية ومسلكيات ابن القيم ومنهج المتقدمين في الحديث ونوازل المعاملات وأخبار القوم من سير النبلاء ..

حدثت نتوءات في لاوعي المترقب، وبثور في ذوقه، وترهل في قدراته الذهنية؛ تزامنت مع متغيرات نظم الاتصالات الحديثة .. ففي بداية فتوّة المترقب كان يحضر بعض الدروس المتخصصة ويقرأ بعض الكتب الراقية في لغتها ومحتواها .. وبعد أن لبس المترقب نظارة شبكات التواصل، وأدمنها، كثرت تبعًا لذلك قراءته للتلفظات السوقية والمخاشنات الحوارية .. حتىٰ تدهور ذوقه وتخلخلت تلك الروح الجمالية التي كانت تلهمه في النظر لذاته ولمن حوله، واستسهل من النابيات ما كان يشمئز منه ..

وكثير من الناس يظن التأثر هو بمدىٰ القناعة بالمقروء من عدمه، وهذا غير دقيق، فنمط المادة المقروءة ونوعها إذا كثر يؤثر في القارئ دون أن يشعر حتىٰ لو لم يكن مقتنعًا بها، لأن غذاء العقل النافع يزاحمه الغذاء الفاسد، ولذلك قال أبو العباس ابن تيمية:

(ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من طعام حاجته استغنىٰ عن طعام آخر، حتىٰ لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة وتجشُّم، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمته إلىٰ المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، ومن أدمن علىٰ أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقىٰ لحكمة الإسلام

وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم لا يبقىٰ لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير)[1].

وكما كانوا يقولون للمسافر للخارج: «احذر المرأة الأولىٰ والكأس الأول»، فما أقرب أن يقال للمنخرط في شبكات التواصل: «احذر الشتيمة الأولىٰ»، ولقد رأيت إخوانًا لي كانوا من أبعد الناس وأكثرهم نفورًا عن الردود الفجة والكلمات النابية، ثم مع كثرة تعرضهم لمناقشين غير راقين، تساهلوا مرة في رد خشن، ثم تبعها أمثالها، وذهب الحاجز بينهم وبين هذه الأساليب، وصرت إذا ناقشته في أسلوبه الجديد قال لي: «هناك أناس لا يفهمون إلا هذه اللغة». فانظر كيف وقع في سلوك جديد شرعنه لنفسه لم يكن ليقع فيه مسبقًا بسبب كثرة جلوسه في طرقات شبكات التواصل وتعرضه المستمر لتدفق ردود بمستوىٰ هابط..

وهكذا القدرات الذهنية فهي ليست شيئًا مختلفًا كليًا عن القدرات البدنية، بل كثير من القوانين التي تجري علىٰ القدرات البدنية تجري ذاتها علىٰ القدرات الذهنية، ومنها قانون (اللياقة)، فعضلات الجسم تترهل وتضمر إذا لم يمارس الإنسان التمارين البدنية، وهكذا القدرات الذهنية تضمر وتضعف إذا لم يمارس العقل المران الذهني العميق، ولذلك كان لفظ الرياضة في التراث

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، ص(١/ ٤٨٣).

الإسلامي يشمل ثلاثة مستويات: البدن والذهن والنفس، كما يقول ابن تيمية: (**لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع: «رياضة الأبدان» بالحركة والمشي، و«رياضة النفوس» بالأخلاق الحسنة، و«رياضة الأذهان» بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة**)[1].

وكانت رياضة الذهن وتمرينه وبناء القدرات العقلية مسألة حاضرة لدىٰ المتقدمين من السلف كما قال ابن تيمية: (**كان كثير من علماء السنة يرغب في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة كالجبر والمقابلة وعويص الفرائض والوصايا والدور: لشحذ الذهن**)[2].

والمراد أنه إذا طال فراق المترقّب للكتب والبحوث الدقيقة وتوليد المفاهيم وتمحيص الاستدلالات وحل الإيرادات، وصار زاده المعرفي تغريدات أفقية، وطالت هذه الحال، ضمرت قدراته الذهنية، بل يتطور الأمر إلىٰ حالة أخطر، وهو كونه ينفر من المسائل العلمية الدقيقة وينفد وقود احتماله وطاقة التركيز لديه، ويصبح عقله يعمل بنظام الوجبات السريعة . .

أخي المترقّب . . أنا ناصح لك، وأحب الخير لك، صدقني أنت تحتاج التوقف سريعًا وتغيير نمط حياتك، وأسأل الله أن نرىٰ منتجاتك العلمية والعملية قريبًا، والله يسددك.

---

(١) ابن تيمية، الرد علىٰ المنطقيين، تحقيق عبد الصمد الكتبي، مؤسسة الريان، ص(٢٩٩).

(٢) المصدر السابق، ذات الصفحة.

إلباس العجز جبّة الحكمة

من أعظم المواضع التي حارت فيها عقول كثير من المنتسبين للعلم والدعوة والحسبة والجهاد، ووقع فيها الاضطراب، باب **(العلاقة بين شعب الإيمان)** . .

حيث خلق الله النفوس متفاوتة في الاستعدادات والملكات والقدرات والقوىٰ والفروق الفردية، ثم أنزل الله وحيًا فتح فيه أبوابًا إلىٰ الخيرات، حتىٰ جعل الله للجنة أبوابًا، ورسم كل باب منها بشعبة من شعب الإيمان، كما خرّج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **(فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة)**[1].

وتنافس أهل الإسلام في تعديد شعب الإيمان، فصنفوا فيه وأوعبوا، حتىٰ بلغ كتاب البيهقي في شعب الإيمان بضعة عشر

---

(١) صحيح البخاري (١٨٩٧).

مجلدًا، والبيهقي تشكَّل وعيه العلمي في عصر الموسوعات الكبرىٰ، وهذا كان مزاج العصر في التأليف، المبني علىٰ الاستيعاب والاستقصاء والشمول . .

وبسبب هذا التفاوت بين غزارة شعب الإيمان، ومحدودية القدرات البشرية وقصر العمر، ينشأ في النفوس التجاذب والتوتر . . فتجد كثيرًا من الناس في لحظات الفتوة العلمية واليفاعة الدعوية: «فلكيّ الطموحات» . . يتحامل علىٰ نفسه أن يصافح النجوم وهو في أسفل الوادي . . كلما سمع اسم عِلْم هفت نفسه إليه . . وكلما نبا إليه خبر ثغر دعوي تخيل نفسه يطير إلّيه . . ثم لا تلبث ارتطامات الواقع وكدمات تعثر المشروعات أن تحفر أخاديد الإحباط في أحلامه . . ويرىٰ بنفسه ملف الآمال تتساقط أوراقه ورقة ورقة أمام عينيه. وتتنوع استجابات الناس لهذا السيناريو المتكرر في حياة الكثيرين، ولكن من أسوأ الاستجابات الشائعة استجابة يمكن تسميتها: **(إلباس العجز جبّة الحكمة)** . .

ودعنا نستعرض بعض نماذج هذه الاستجابة:

فمن ذلك أن من أعظم شعب العلم **(حفظ العلم في الصدور)** كما قال ربنا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ولو لم يكن في فضل حفظ العلم إلا بركة دعاء سيدي رسول الله ﷺ لكفىٰ: **(نضّر الله امرًا سمع منا حديثًا فحفظه حتىٰ يبلغه)**[1] . .

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٦٠)، سنن الترمذي (٢٦٥٦).

بل تمعن في استفسار رسول الله ﷺ -كما في الصحيحين- حين قال لأحد شباب الصحابة: (**ماذا معك من القرآن؟**) فقال الشاب: (**معي سورة كذا، وسورة كذا، وسورة كذا ..**) وأخذ يعدّد سورًا، ثم أعاد النبي ﷺ السؤال بتدقيق أكثر يكشف منزلة الحفظ في نفس رسول الله ﷺ حيث قال له النبي ﷺ: (**أتقرؤهن عن ظهر قلبك؟**)، فقال الشاب: نعم، فقال النبي ﷺ: (**انطلق فقد زوجتكها فعلمها من القرآن**)[1]، فمفهوم (القراءة عن ظهر قلب) الذي يؤكد عليه رسول الله ﷺ هاهنا يسكب اليقين في النفس حول شرف حفظ العلم ..

وكل طلاب العلم بلا استثناء يبدؤون حياتهم العلمية بمشروعات الحفظ، ولكن إمكانيات الحفظ والضبط تتفاوت، فقد رأينا أشخاصًا يحفظون في نصف ساعة ما يستذكرونه بعد شهرين، ورأينا أشخاصًا يحفظون بعد العصر ما يضطربون في تلاوته قبيل العشاء!

فبعضهم إذا لم يستطع حفظ العلم لا يعترف لنفسه بالعجز ولا يجتهد في تحفيز إخوانه ممن يستطيع ذلك، بل تراه يخذّل إخوانه عن حفظ العلم، ويبتكر ألوان الملامز في المشتغلين بحفظ العلم، برغم أنه هو ذاته، هو ذاته لا غيره، يضمر في نفسه رهبة أمام حفاظ العلم، وذهولًا منهم إذا بدؤوا في سرد محفوظاتهم، وكم

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٣٠)، صحيح مسلم (١٤٢٥)، ولم أجد التصريح باسم المبهم، وصُرِّح بكونه شاب في مسند ابن أبي شيبة (١٠٢).

رأينا من أشخاص يذمون حفظ العلم أمام أقرانهم، ثم إذا أرادوا الثناء علىٰ من يوافق هواهم قالوا: هو «يحفظ كذا وكذا»، فيذمون حفظ العلم في باب التنظير، وينسون تنظيرهم في ساحة النزال والمباهاة ..

بل ويخترع بعضهم متضادات ليست أضدادًا أصلًا، كتضديدهم بين الحفظ والفهم، وهل رأيت أحدًا أصلًا يقول: (أوصيك أن تحفظ ولا تفهم!)، بل كل من يقول احفظ يقول لك: افهم، ولكن المصيبة في من يقول: (افهم ولا تحفظ!) وأي شيء يضيرك أن تكون صادقًا مع نفسك، وناصحًا لفتيان يستمعون إليك، فتقول لهم: يا إخواني استثمروا أعماركم قدر استطاعتكم بالفهم والحفظ، كليهما.

ومن أسباب سوء الفهم في مسألة **(حفظ العلم)** أن كثيرًا من الناس إذا ذكر لهم حفظ العلم انصرفت أذهانهم إلىٰ **(حفظ المتون)** المقررة المعروفة، والواقع أن **حفظ المتون** هو «جزء» جليل من حفظ العلم، ولكنه ليس هو حفظ العلم بـ«المطابقة»، فحفظ العلم أوسع من ذلك كثيرًا، حيث يدخل في حفظ العلم: حفظ ألفاظ القرآن والحديث، وأسماء الأعلام ووفياتهم، ومعاني اللغة والتعريفات، وأشهر الأقوال في المسألة، والتسلسل التاريخي للمذاهب والبدع، ومواطن المسائل ومظانها، وحفظ الموضوعات التي تعرض لها كل كتاب مهم في بابه .. إلخ.

بما يعني أن كل عناصر العلم هي من أبواب حفظ العلم،

وكلما حفظ طالب العلم قدرًا أكبر من المعلومات زادت إمكانياته.
وقد كان السلف في القرون المفضلة قبل نشوء المتون المقررة المعروفة منهمكين في حفظ العلم ويحفظون ألفاظ النصوص وآثار الصحابة والأسانيد وأحوال الرواة ولغة العرب وشواهدها ونحوها من المعلومات. والمراد أن حفظ العلم أوسع من حفظ المتون، وأن حفظ المتون جزء جليل من حفظ العلم.

ومن أسباب سوء الفهم -أيضًا- في مسألة (حفظ العلم) ظنُّ الكثيرين أن حفظ العلم بتكرار لفظه، بتعيين مقطع وتكراره، وهذا صحيح جزئيًا، فتكرار اللفظ المعين طريق عملي فعّال لحفظ العلم، لكنه ليس هو الطريق الوحيد، بل الصحيح أن كل وسائل «**معاناة العلم**» بإدمان النظر فيه وتقليبه، وتأمله وتدبره: بالشرح والتلخيص والتعليم والتحقيق والتحرير والمدارسة والمباحثة والفتيا .. الخ. كلها من وسائل حفظ العلم ورسوخه في الذهن.

ومعاناة العلم تثمر **الخبرة** به، ولذلك ترىٰ الإمام ابن تيمية يستعمل مصطلح **الخبرة** في تقييم العلم كثيرًا، كقوله من له **خبرة بالسنة** علم كذا، أو من له **خبرة بنصوص أحمد**، أو فلان لم يكن له **خبرة بمذهب أهل السنة**، وهكذا، **فالخبرة** فيها قدر زائد علىٰ مجرد العلم المحض، وهي الناتجة عن معاناة العلم وتقليبه وإدمان النظر فيه وتفحصه وتمعنه ..

وهذه القضايا، حول مفهوم حفظ العلم ووسائل حفظ العلم؛ ليس هذا موضع بسطها، ولها إن شاء الله موضع آخر، وإنما المراد

التنبيه عرضًا علىٰ وهم يرد للبعض.

ومن شعب العلم (التبحر) وسعة الاطلاع وجرد المطولات وثراء المقروءات، وجندلة الكتب واحدًا تلو الآخر، وسعة الاطلاع تفتح باب التشعب في العلم، ولذلك قال ابن عبد الهادي عن شيخه البحر ابن تيمية: (**لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروىٰ من المطالعة، وقلّ أن يدخل في علم من العلوم، في باب من أبوابه؛ إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب**)[1]

وقال ابن كثير عن صاحبه ابن القيم: (**وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه . . ، واقتنىٰ من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْره، من كتب السلف والخلف**)[2].

ووفرة المصادر تتيح لمن يروم الكتابة والتأليف النقول التي يحتاجها، ويظهر أثر ذلك في كتابه، كما قال ابن حجر عن الأذرعي: (**وجمع الكتب حتىٰ اجتمع عنده منها ما لم يحصل عند غيره، وظفر من النقول ما لم يحصل لأهل عصره، وذلك بيّن في تصانيفه**)[3].

وتحقيق وتحرير المسائل هو مخ العلم، ولقد حفر إزميل

---

(١) ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق أكرم البوشي وزميله، مؤسسة الرسالة، ص(٤/ ٢٨٢).

(٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ص(٩/ ٤٩١).

(٣) ابن حجر، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق د. حسن حبشي، نشرة لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص(١/ ٢٤١).

التجارب في ذهني أن **(مقارنة المصادر هي مفتاح التحقيق)**.

ومن أعظم ثمرات مقارنة المصادر أنها تفرز لك (المعلومة) عن (القراءة والتفسير)، فكم من مُعطًى قرأته في كتاب تظنه معلومة مسلَّمة يُبنىٰ عليها، فلما قارنت المصادر تبيّن أنها رأي وتوجيه واستنتاج من المؤلف.

وتجد بعض شداة العلم في مبتدأ الطريق يولعون بشراء الكتب، وذهنه يعيش قصة مشروع علمي مع كل كتاب يمد يده إليه ليقتنيه، فيتخيل نفسه كيف سيقرؤه؟ وماذا يستخرج منه؟ وماذا سيضيف إليه؟ ثم لا يلبث بعد زمن أن يرىٰ كتبه التي اشتراها من معرض الكتاب السابق لم يمسها إلىٰ الآن بينما هو يدفع عربته في معرض الكتاب الحالي! فتضطرم في صدره أحاسيس اللاجدوىٰ ومخاوف خداع الذات، فتجد بعضهم لا يعترف لنفسه بالعجز عن الجدية في القراءة وسعة الاطلاع، وعدم قدرته علىٰ الاستفادة من الكتب الكثيرة، بل ينقلب ويخلع علىٰ عجزه عباءة الحكمة، ويتحول ذامًا ومحذرًا من اقتناء الكتب ومطاردة المصادر، دون تمييز بين من يقتني الكتب وينتفع بها، وبين من يقتني الكتب ويكدسها.

وهذا التوازن بين الحث علىٰ اقتناء الكتب، وبين التحذير من الاقتناء للمكاثرة فقط، تعددت التنبيهات إليه في كتب أدب الطلب، ومن ذلك قول بدر الدين بن جماعة (ت٧٣٣هـ): **(ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه، لأنها آلة**

التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وكثرتها حظه من العلم، وجمعها نصيبه من الفهم، كما يفعله كثير من المتحلين للفقه والحديث)[1].

فوازن ابن جماعة هاهنا بين الحث علىٰ اقتناء الكتب، والاحتراس من اقتناء المكاثرة، وهذا يتعارض مع من يزهّد في كثرة اقتناء الكتب مطلقًا، ومن يمدح كثرة اقتناء الكتب مطلقًا.

وهاتان الشعبتان من شعب العلم، أعني شعبة (حفظ العلم) وشعبة (سعة الاطلاع)، كثر افتعال الصدام بينهما، وهو نظير الصدام المفتعل بين شعبة (حفظ العلم) وشعبة (فهم العلم)، وكل هذه الشعب تقع من العلم موقع الأبواب من القصر، فاجتهد في تكثير أبوابك، وما علىٰ أحدٍ يُدعىٰ من جميع هذه الأبواب من ضرورة.

ولا أذيع سرًا إن قلت للقارئ أنني كلما رأيت انفجار المعارف في عصرنا، وتنوع أساليب العرض والمعالجة، ثم رأيت طالب علم يزهّد في سعة الاطلاع؛ إلا انقبض قلبي، وخشيت أن ينشأ جيل إسلامي ينكسر معرفيًا أمام التيارات المنحرفة، ثم تدور في خاطري الهموم كيف أوصّل لهذا رسالة بأن تصرفه خاطئ وخطر علىٰ مستقبل العلم والدعوة.

ومن أعظم شعب العلم، شعبة (فقه مسائل التراث) وشعبة (فقه النوازل) فتجد بعض من حاول أن يفقه المستجدات المالية

---

(١) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، تحقيق السيد الندوي، دار رمادي، ص(٢٢٥).

والطبية والسياسة الشرعية أعياه تتبع مصادرها الحديثة، فعاد منتقصًا لها بدل أن يعترف بعجزه ويحرض إخوانه علىٰ القيام بالواجب الكفائي، وتجد آخرين حاولوا فقه المسائل التراثية الأصيلة فأعيتهم لغة تلك الكتب وانقطعت أعناقهم عن مطولاتها، وتنوع العلوم الآلية المطلوبة لها؛ فأنِفوا من الاعتراف بالعجز، وصاروا يظهرون التهكم بمن يحرث الماضي ويعيد إنتاج المستهلكات. والواقع أن كلا المطلبين شعبتان عظيمتان من شعب العلم، فمن جمعهما فقد تسيّد المشهد الفقهي، ومن عجز عن أحدهما فليجتهد فيما تدركه قواه وملكاته، وليشارك إخوانه في الجبهة الأخرىٰ بالنية الصالحة علىٰ الأقل، فيدعو لهم ويحبهم، والمرء مع من أحب، وليس من اللائق إذا عجزت عن أحدهما أن تتقمص صورة الحاذق الواعي في تركك لأحد البابين.

ومن أعظم **وسائل الدعوة** اليوم التسلح بقدر أساس من **الثقافة المعاصرة**، فإن العلم الشرعي غذاء، والثقافة المعاصرة وعاء، والوعاء الجميل يفتح شهية المتلقي للغذاء النافع، وأكثر العلماء بعد السلف تأثيرًا في قضايا المنهج هم العلماء المثقفون، كابن حزم والغزالي وابن تيمية، بل إن المثقفين الإسلاميين كالمودودي وسيد قطب والندوي ونحوهم كانوا أكثر تأثيرًا من بعض فحول العلماء في عصرنا، برغم ما يعتري خطاب هؤلاء المثقفين الإسلاميين من بعض القصور الناشئ عن قلة الخبرة بعلوم الشريعة، فكيف لو جمع بينهما في نموذج (العالم المثقف)؟!

والمراد أن هذه الأمة لها خصوصية، فهي (أمة وحي) فمن لم يعرف كلام الله ورسوله، ومعاني كلامهما، والعلوم الموصلة لذلك؛ لم يستطع التأثير الصحيح في هذه الأمة، ومن لم يعرف الثقافة المعاصرة لم يعرف كيف تشكل عقل الجيل الجديد؟ وكيف تفكر النخب المعاصرة المأزومة مع الإسلام؟ فالثقافة المعاصرة «لغة» ومن لم يعرف لغة قوم كيف يدعوهم؟ ولذلك قال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فتدبر كيف ربط البيان باللسان، ينفتح لك باب إدراك أثر معرفة اللسان الثقافي المعاصر في البيان الشرعي.

وكنت حين أقرأ في كتب التراجم يلفت انتباهي حين يقولون عن عالم من علماء السنة أنه اطلع علىٰ العلوم العقلية في عصره، بل إنني كنت زمنًا طويلًا أتوهم أن ابن تيمية إنما قرأ الثقافة المعاصرة بعدما كبر وصار في أواسط العمر، واكتشفت أنه أنجز العلوم الشرعية، ثم اطلع علىٰ الثقافة المعاصرة، بل وصل إلىٰ مستوىٰ نقدها، ليس نقدًا جزئيًا في بعض المسائل، بل نقدًا كليًا شاملًا، كل ذلك وهو صغير، حيث يقول عن نفسه:

(المعلوم من حيث الجملة أن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بني آدم حشوا وقولًا للباطل وتكذيبًا للحق في مسائلهم ودلائلهم، وأذكر أني قلت مرة لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم، وأنا إذ ذاك صغير قريب العهد من الاحتلام؛ كل ما يقوله هؤلاء ففيه باطل، إما في الدلائل وإما في المسائل، إما أن يقولوا مسألة

تكون حقا لكن يقيمون عليها أدلة ضعيفة، وإما أن تكون المسألة باطلًا، فأخذ ذلك المشغوف بهم يعظم هذا وذكر «مسألة التوحيد»، فقلت: التوحيد حق، لكن اذكر ما شئت من أدلتهم التي تعرفها حتىٰ أذكر لك ما فيه ..)[1].

هذا الحوار الذي يسجله ابن تيمية من واقع سيرته الذاتية، حيث يروي كيف نقد الثقافة الفلسفية في عصره باستيعاب شامل ودقيق؛ وهو **قريب العهد من الاحتلام**، بلغ بي من الانبهار مبلغه، وتوقفت عن القراءة حين بلغت هذا الموضع، ووضعت يدي في الكتاب، وصرت أبحث عن من أطلعه عليه، وأتحرىٰ الدهشة في وجهه كالمستزيد ..

والمراد هاهنا أن **الجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة عملة نادرة**، وأهل هذا الجمع هم المؤهلون للتأثير العميق في هذا العصر بعد توفيق الله، وهم المؤهلون لتحقيق مراد الله بتحكيم الشريعة في مسائل المعرفة والعلوم المعاصرة، وتحرير مسائل العلوم الحديثة في ضوء الوحي، ويجب أن نعترف أنها مهمة شاقة وتحتاج لملكات خاصة، من أهمها «سرعة الإدراك»، وهي ملكة أخص من مطلق الفهم، وتأمل سرعة الإدراك فيما يرويه ابن عبد الهادي عن شيخه ابن تيمية: **(وقرأ أيامًا في العربية علىٰ**

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، ص(٤/ ٢٧).

ابن عبد القوي، ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتىٰ فهمه)[1].

والحقيقة أنك تجد بعض المشتغلين بالعلم الشرعي لاحظ أنه لا يمكنه الجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة، فصار يزهّد غيره من أهل العلم في ذلك، وهذا اجتهاد غير موفق، بل يجب أن يوجه العالم طلابه إلىٰ أن يؤصّلوا أنفسهم في العلوم الشرعية، ثم يكونوا أنفسهم تكوينًا ثقافيًا ممتازًا بحسب الطاقة والإمكان، ولا يلبس عجزه جبّة الحكمة.

ومن ذلك أنك تجد من شعب الإيمان **(الصدع بالحق)** وتحمل ما يترتب عليه تبعًا من الابتلاء، بل إن حمل رسالة الإسلام ذاتها لا تسلم من تهديدات القوىٰ الدنيوية أصلًا، كما قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وجاء في القرآن التنبيه علىٰ مقام (الصبر) بعد مقام (النهي عن المنكر) كما قال الله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧]، فيصدع الناهي عن المنكر -مثلًا- في المنكرات الأخلاقية أو المظالم الحقوقية والمالية ونحوها، ثم قد يرىٰ الفقيه والداعية عجزه عن ذلك، فلا يصارح بعضهم نفسه بعجزه، ويدعو لمن قام بالفرض الكفائي ورفع المعرّة عنه؛ بل يحاول أن يلبس عجزه جبّة الحكمة ومشلح بُعد النظر، ويلمّح للصادعين بمهامز التهور والتعجل وقلة العلم والوعي والعاطفة

---

(١) ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق أكرم البوشي وزميله، مؤسسة الرسالة، ص(٤/ ٢٨٢).

والحماس ونحو هذا المعجم البارد.

وكم شاهدنا من عجز عن الإنكار والاحتساب، وفي ذات الوقت ثقُل عليه أن يعترف بالعجز والقصور، فاستعاض عن ذلك باستسذاج المحتسبين.

ومن أعظم شعب الإيمان نصرة المجاهدين في سبيل الله، الملتزمين بالضوابط الشرعية للجهاد، المجافين للغلو، والمتسامين بأخلاقيات المجاهد في سبيل الله، أولئك الذين ألقوا أرواحهم تحت أزيز الغطرسة الاستعمارية وذيولها، نُصْرَتُهم بالكلمة والريال وقنوت النازلة وأكف الضراعة إذا هبطت الأسحار، وتدبر قول ربنا: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ثم إنك تجد بعض من حاول نصرة هؤلاء المظلومين شعر بإحراجات داخلية فتداهمه الخيالات المرتعشة حتىٰ يقوده الذعر ليس إلىٰ الاعتراف بعجزه، أو علىٰ الأقل يقول لنفسه أن لديه مصالح دعوية راجحة تمنعه من نصرة المظلوم، ونحو هذا، بل تراه يستسمن عمامة الحكمة بأكوارها وذؤابتها ويتزيا بها، وتندّ من لسانه العبارات الموحشة يطعن بها في ظهور أقوام اشترىٰ الله سبحانه نفوسهم، أيقوىٰ هذا علىٰ أن يأتي يوم القيامة وخصومه تثعب جراحهم، اللون لون الدم والريح ريح المسك؟

وقد كان يسع هذا وأمثاله أن يجتهد فيما يمكنه، ويشارك إخوانه الباذلين أرواحهم بالنية الصالحة والدعاء والحب، فالمرء مع من أحب، وقد كان في غنىٰ عن أن يغطّي عجزه بأسمال الحكمة المثلجة.

فن القراءة الجردية

لعلك لاحظت أنه كلما أطلقت أجراس الإجازات فرحتها وجدت كثيرًا من الشباب -ولله الحمد- قد عزم علىٰ القراءة والاطلاع، وبعضهم وضع لنفسه جدولًا وعيّن كتبًا لقراءتها، وبعضهم يستشير أهل التخصصات في مقروءات يقترحونها.

والحقيقة أن من أهم المعطيات في باب العلم، وفعالية القراءة والاطلاع؛ هو أنه وبكل اختصار: (**الكتب البديعة كثيرة، والعمر قصير، والصوارف تتزايد**)، ومن تأمل هذه المعادلة أدرك أنه لا يمكن الفرار من التفكير في استثمار الوقت المخصص للقراءة إلىٰ أقصىٰ ما يمكن تحقيقه من الأرباح المعرفية.

ومن وسائل استثمار (وقت القراءة) ما يسمىٰ بـ(**قراءة الجرد**) وهي المطالعة السريعة للكتاب بحيث يلتقط القارئ من خلالها: هيكل الكتاب، وأسئلته الرئيسية، ومظان المسائل فيه، والتصورات العامة في الكتاب.

ويحدد من خلال هذا الجرد: ما مدىٰ احتياجه للكتاب؟ ثم

أين يقع بالضبط موضع الحاجة منه؟ حتىٰ لا يتورط بصرف قراءة دقيقة تحليلية لكتاب قد يكتشف بعد الانتهاء منه أنه كتاب هش ضيّع وقته، أو لا يتلاقىٰ مع احتياجاته، أو يكتشف أن المفيد من الكتاب هو الفصل الفلاني فقط، الخ. فمثل هذه الأمور لا يستطيع أن يحددها من يبتدئ الكتاب بقراءة دقيقة قبل قراءة الجرد، حيث تمثل قراءة الجرد (قراءة استكشافية مسبقة)، وهذه القراءة السريعة ليست **(تصفح عشوائي)** بل هي **(تصفح منظم)**، والتمييز بين التصفح العشوائي والمنظم هو أحد التمييزات الهامة في فن القراءة كما سيأتي التنبيه عليه.

والمراد أن الانخراط في **القراءة التفصيلية** للكتاب، قبل عملية **التصفح المنظم**، نوع من الغرر المعرفي، وهو يشبه ركوب المجاهل قبل تصفح الخريطة.

والقراءة الجردية كانت أحد أهم الأنماط الشائعة للقراءة لدىٰ سلفنا، بجانب أنماط أخرىٰ للقراءة طبعًا، كقراءة الضبط والتصحيح والتأمل والاستظهار والحفظ الخ، وأخبارهم في القراءة الجردية منتشرة مبثوثة في كتب التراجم، ولكن بعض أهل العلم جمع نماذج من ذلك، ومن أهم من خصص فصولًا أو استطرادات جمع فيها هذه النظائر: المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ) في كتابه: فتح المتعال في مدح النعال، والمحبي (ت١١١١هـ) في كتابه: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، وجمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ) في كتابه: قواعد التحديث من فنون مصطلح

الحديث، وعبد الحي الكتاني (ت١٣٨٢هـ) في كتابه: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.

فأما المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ) فإنه لما ذكر خبر قراءة الفيروزآبادي لصحيح مسلم في ثلاثة مجالس، وخبر قراءة القسطلاني لصحيح البخاري في خمسة مجالس، قال بعد ذلك (**ومما هو من هذا القبيل في السرعة ..**)[1] ثم استرسل في رواية بعض أخبار السرعة في القراءة والمطالعة.

وأما المحبّي فإنه لما ترجم لأبي بكر باعلوي الشلي وذكر سرعة قراءته قال (**حُكِي عن بعض الحفاظ ما هو أعظم من هذا ..**)[2] ثم استعرض بعض أخبار الأئمة في سرعة القراءة.

وأما القاسمي فقد عقد فصلًا في كتابه قواعد التحديث في ثنايا الباب التاسع قال فيه (**ذِكر أرباب الهمة الجليلة في قراءتهم كتب الحديث في أيام قليلة**)[3] ثم ساق عددًا من الأخبار.

وأما **الكتاني** فقد نقل كلام ابن حميد -صاحب السحب الوابلة- عن شيخه السنوسي وقراءته لكتب الحديث في أيام قليلة، ثم علّق الكتاني مستطردًا بقوله (**وعلىٰ ذِكر سرعة القراءة، والصبر**

---

(١) المقّري، **فتح المتعال في مدح النعال**، تحقيق علي عبد الوهاب وزميله، دار القاضي عياض، ص(٥٢٧).

(٢) المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، ص(١/ ٩١).

(٣) القاسمي، **قواعد التحديث**، تحقيق مصطفىٰ شيخ، مؤسسة الرسالة، ص(٤٥٢).

علىٰ السماع . .)[1] ثم ساح قلم الكتاني في ذكر أخبار أهل العلم في قراءة الجرد السريعة.

وسأنقل هاهنا بعض النماذج التي نبّهت لها المصادر السابقة، ونحوها مما مرّ بي، ليطلع القارئ علىٰ نماذج من القراءة الجردية عند سلفنا، فمن هذه الأخبار:

- في كتابه الشهير تاريخ بغداد ترجم الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) للمحدث إسماعيل الحيري، وكان إسماعيل هذا يختص بميزة إسنادية، وهو علو إسناده في رواية صحيح البخاري، حيث يرويه عن الكشميهني عن الفربري عن البخاري، ولما أراد الحيري السفر من نيسابور إلىٰ مكة للحجّ، مر ببغداد إذ كانت علىٰ طريق سفره، لكن حملة الحج تعثرت لظروف أمنية، فعزم علىٰ الرجوع لنيسابور، فانتهز الخطيب البغدادي الفرصة، وقرأ علىٰ الحيري صحيح البخاري كاملًا في مدة استثنائية، حيث يروي الخطيب البغدادي القصة بنفسه قائلًا:

(إسماعيل الضرير الحيري من أهل نيسابور، قدم علينا حاجًا في سنة ثلاث وعشرين وأربع مائة . . ، كتبنا عنه، ونعم الشيخ كان فضلًا وعلمًا، ولما ورد بغداد كان قد اصطحب معه كتبه عازمًا علىٰ المجاورة بمكة، وكانت وقر بعير وفي جملتها «صحيح البخاري»، وكان سمعه من أبي الهيثم الكشميهني عن الفربري، فلم

---

(١) الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب، ص(٢/ ١٠٤٤).

يُقضَ لقافلة الحجيج النفوذ في تلك السنة لفساد الطريق، ورجع الناس، فعاد إسماعيل معهم إلىٰ نيسابور، ولما كان قبل خروجه بأيام خاطبته في قراءة كتاب «الصحيح،» فأجابني إلىٰ ذلك، فقرأت جميعه عليه في ثلاثة مجالس، اثنان منها في ليلتين، كنت أبتدئ بالقراءة وقت صلاة المغرب وأقطعها عند صلاة الفجر، وقبل أن أقرأ المجلس الثالث عبر الشيخ إلىٰ الجانب الشرقي مع القافلة ونزل الجزيرة بسوق يحيىٰ، فمضيت إليه مع طائفة من أصحابنا كانوا حضروا قراءتي عليه في الليلتين الماضيتين، وقرأت عليه في الجزيرة من ضحوة النهار إلىٰ المغرب، ثم من المغرب إلىٰ وقت طلوع الفجر، ففرغت من الكتاب، ورحل الشيخ في صبيحة تلك الليلة مع القافلة)[١].

وقد تناقل العلماء هذه الواقعة للخطيب البغدادي، وكتبوها بحبر الدهشة، وشرقت كلماتهم بالانبهار، حتىٰ أن الذهبي ذكر هذه القصة في كتابه «سير أعلام النبلاء» ثم عقّب الذهبي بعدها بقوله (قلت: هذه والله القراءة التي لم يسمع قط بأسرع منها)[٢]، كما نقل الذهبي القصة ذاتها في كتابه الآخر «تاريخ الإسلام» ثم قال (وهذا شيء لا أعلم أحدا في زماننا يستطيعه)[٣].

وقد صدق الذهبي، فإن صحيح البخاري في طبعته بالحروف

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب، ص(٧/ ٣١٧).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، إشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ص(١٨/ ٢٨٠).

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب، ص(١٩/ ١٨٢).

العادية يقع في أربع مجلدات، فكيف قرأه الحافظ الخطيب البغدادي علىٰ شيخه الحيري في ثلاثة أيامِ؟! هذه الواقعة فيها شاهد لسرعة وطلاقة القراءة، وشاهد آخر لا يقل عنه وهو الجلد والدأب وصلابة التحمل والصبر علىٰ المطالعة.

-ويعرف المتابعون لتاريخ الفقه أن رأس علماء المالكية في القرن السادس هو القاضي عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، وله مهابة في نفوس المالكية، وأقيمت للتنويه به مؤتمرات معاصرة متعددة، والقاضي عياض له كتاب أشبه بمعاجم الشيوخ علىٰ طريقة المحدثين، سمّاه «الغنية»، ذكر فيه أشياخه الذين سمع منهم وشيئًا من أخبارهم، وهذا الكتاب مصدر عزيز اعتمد عليه المؤرخون ممن جاء بعده، ومن أشياخ القاضي عياض الذين سمع منهم وترجم لهم في هذا الكتاب ابن النخاس، وقد قال عنه: (**أبو القاسم ابن النخاس، زعيم المقرئين بقرطبة ..، حدثني بـ«رسالة ابن أبي زيد»، بقراءتي عليه، في مجلس واحد، في داره بقرطبة**)[1].

ورسالة ابن أبي زيد (ت٣٨٦هـ) مرجع مركزي في الفقه المالكي طُبِعت في مجلد[2]، وطُبِعت لها شروح عديدة، وتأمل كيف جردها القاضي علىٰ شيخه في مجلس واحد.

-ولما استعرض الحافظ أبو سعد السمعاني (ت٥٦٢هـ)

---

(١) القاضي عياض، **الغنية**، تحقيق ماهر جرار، دار الغرب، ص(١٤٧).

(٢) ابن أبي زيد، **الرسالة الفقهية**، وبحاشيتها: غرر المقالة في شرح غريب الرسالة للمغراوي، تحقيق د. الهادي حمّو وزميله، دار الغرب.

شيوخه في معجمه المعروف، عرض لذكر شيخه أبي الفتح الولوالجي، وقال عنه: (**لما رجعنا إلىٰ سمرقند سألته -أي شيخه الوالوالجي- يومًا الحضور عندنا، لنقرأ عليه الكتاب -أي كتاب الشمائل للترمذي-، فحضر، وقرأنا عليه جميع الكتاب في مجلس واحد**)[1].

وكتاب الشمائل للترمذي مطبوع في مجلد واحد، وقد اجتمعوا وقرؤوه في مجلس واحد!

-وتواطأ المترجمون لابن تيمية ممن شاهدوه وشافهوه، ثم من روىٰ عن هذه الطبقة، علىٰ التعجب من أمرين في شخصية ابن تيمية: سرعة قراءته وسرعة كتابته، وقد صوّر الذهبي تفاصيل شخصية ابن تيمية في مسرد طويل حتىٰ كأنك تراه، وجاء من ضمن وصفه أن قال الذهبي عن ابن تيمية (وكان الشيخ .. سريع القراءة)[2].

وقال ابن عبد الهادي عن ابن تيمية (وقرأ الغيلانيات في مجلس)[3] والغيلانيات طبعت في مجلد[4]، وتقع صفحاتها في

---

(١) السمعاني، **المنتخب من معجم شيوخه**، تحقيق د. موفّق عبد القادر، نشرة جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ، ص(٢/ ١٠٦٣).

(٢) الذهبي، **ذيل تاريخ الإسلام**، تحقيق مازن باوزير، دار المغني، ص(٣٢٩).

(٣) ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق أكرم البوشي وزميله، مؤسسة الرسالة، ص(٤/ ٢٨٢).

(٤) البزاز، **الغيلانيات**، تحقيق فاروق مرسي، دار أضواء السلف.

حدود (٣٥٠) صفحة، وتتضمن (١١٠٤) حديث، وهي من أعلىٰ كتب الحديث إسنادًا، وتلاحظ أن ابن تيمية قرأ هذا الكتاب في مجلس واحد!

ووصف الصفدي سرعة كتابة ابن تيمية فقال (**وكان ذا قلم يسابق البرق إذا لمع، يملي علىٰ المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم، ويكتب الكراسين والثلاثة في قعدة**)[١].

وذكر ابن رجب نموذجًا للكتب التي كتبها ابن تيمية بسرعة فقال (**قلت: وقد كتب «الحموية» في قعدة واحدة، وهي أزيد من ذلك، وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يبيض منه مجلد**)[٢].

والحموية طبعت في مجلد، وهي أحد أهم الكتب الأصول في دراسة عقيدة أهل السنة، وهي غزيرة بالحجج والنصوص، وكثيرًا ما يستغرق تدريسها في المساجد زهاء سنة، وقد كتبها في جلسة واحدة رحمه الله.

-وحين ترجم الحافظ تقي الدين ابن فهد في ذيله علىٰ تذكرة الذهبي وذيلها للحسيني، ذكر من جملة المترجَمين الحافظ أبا الفضل العراقي (ت٨٠٦هـ)، وذكر رحلاته للسماع، وروىٰ فيها أحوالًا تشهد فعلًا بسرعة قراءة الحافظ العراقي رحمه الله، فمن ذلك قول ابن فهد:

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ص(١/ ٢٣٥).

(٢) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ص(٤/ ٥٠١).

(وابن الخباز محمد بن إسماعيل قرأ عليه -أي العراقي- صحيح مسلم في ستة مجالس متوالية، قرأ في آخر مجلس منها أكثر من ثلث الكتاب، وذلك بحضور الحافظ زين الدين بن رجب، وهو يعارض بنسخته)[1].

-وجاء في ترجمة الفيروزآبادي (٨١٧هـ) صاحب «القاموس» أنه قرأ بدمشق، علىٰ ناصر الدين بن جهبل، صحيح مسلم، في ثلاثة أيام، ثم أنشد:

قرأت بحمد الله جامع مسلم
بجوف دمشق الشام جوفًا لإسلامِ
علىٰ ناصر الدين الإمام ابن جهبل
بحضرة حفاظٍ مشاهير أعلامِ
وتم بتوفيق الإله وفضله
قراءة ضبط، في ثلاثة أيامِ[2].

وصحيح مسلم كما يعرف القراء الكرام في طبعته بالحروف العادية يقع في أربع مجلدات، فانظر كيف قرؤوا هذه المجلدات

---

(١) ابن فهد، **لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ**، مطبوع مع ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني، دار الكتب العلمية، ص(٢٢٣)، وقارن بـ: **قواعد التحديث** للتهانوي ص(٤٥٣)، **فهرس الفهارس** للكتاني ص(٢/ ١٠٤٨)

(٢) السخاوي، **الضوء اللامع**، دار الجيل، ص(١٠/ ٨٠)، وانظر: **أزهار الرياض** للمقري (٣/ ٤٨)، **وشذرات الذهب** لابن العماد (٩/ ١٩٢) فبين النصّين اختلاف في ضبط بعض ألفاظ الأبيات، والله أعلم بالصواب.

الأربع، قراءة ضبط، في ثلاثة أيام! وبصوت مسموع وليست فقط قراءة خافتة تسترق الحروف!

وقد نقل المقّري -أيضًا- هذه القصة متعجبًا، وصدّرها بقوله (**ومن أغرب ما منح الله تعالىٰ المجد مؤلف القاموس ..**) ثم ذكر القصة السابقة، ثم بعد أن انتهىٰ من سرد القصة عقّب عليها بقوله (**فسبحان المانح الذي يؤتي فضله من يشاء**)[١].

-وفي واحد من عيون كتب التراجم، وهو كتاب الحافظ السخاوي الذي سمّاه (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر)، وشرح فيه السخاوي أحوالًا علمية في غاية الفرادة والإبهار لشيخه الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ)، ومنها منجزات ابن حجر العلمية أثناء رحلاته، إلىٰ قوص والإسكندرية والحجاز واليمن والشام، وما أبدعه خلال ذلك من المطالعات والمؤلفات والتعليقات، وكانت قائمة مذهلة من الأعمال العلمية، ثم عقّب السخاوي بعد ذلك بتفسير هذه القدرة الاستثنائية لهذا الإنجاز، فقال:

(وأعانه علىٰ كل هذا أمور يسّرها الله تعالىٰ له، قلّ أن تجتمع في غيره، منها: سرعة القراءة الحسنة، فقد قرأ السنن لابن ماجة في أربعة مجالس، وقرأ صحيح مسلم بالمدرسة المنكوتمرية علىٰ

---

(١) المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفىٰ السقا وزملائه، مطبعة فضالة، ص(٣/ ٤٨).

الشرف أبي الطاهر الربعي في أربعة مجالس، سوىٰ مجلس الختم، وذلك في نحو يومين وشيء، فإنه كان الجلوس من بكرة النهار إلىٰ الظهر، وما وقع لصاحب الترجمة -أي ابن حجر- في قراءة صحيح مسلم أجلّ مما وقع لشيخه المجد اللغوي صاحب القاموس، وكذا قرأ كتاب النسائي الكبير علىٰ الشرف المذكور في عشرة مجالس كل مجلس منها نحو أربع ساعات، وأسرع شيء وقع له أنه قرأ في رحلته الشامية معجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر، وهذا الكتاب في مجلد يشتمل علىٰ نحو ألف وخمسمائة حديث، ومن الكتب الكبار التي قرأها في مدة لطيفة «صحيح البخاري»، حدّث به الجماعة من لفظه بالخانقاه البيبرسية في عشرة مجالس، كل مجلس منها أربع ساعات . .)[1].

- ومن أشهر شروح صحيح البخاري شرح العلامة شهاب الدين القسطلاني (ت٩٢٣هـ) وهو يعتني بضبط اللفظة ومعناها علىٰ الاختصار، وفيه ميزة عظيمة إذ يدرّب قارئه علىٰ العلم بأسماء رجال الحديث وضبطها فهو يكرر إيضاح الاسم في كل موضع يتكرر، فلا يخرج منه قارئه إلا ورجال البخاري كأنهم أهل حيّه، وربما تدخل بعض السآمة علىٰ القارئ فقط من تدقيق القسطلاني في اختلاف بعض الألفاظ غير المؤثرة في نسخ وروايات الصحيح

---

(١) السخاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق إبراهيم عبد المجيد، دار ابن حزم، ص(١/ ١٦١-١٦٣) مختصرًا؛ وقارن بذيل ابن فهد ص(٣٣٦).

كأبي ذر والأصيلي وأبي الوقت والكشميهني والحموي والمستملي وابن عساكر ونحوها مما يذكره في شرحه، أما اختلاف الألفاظ المؤثرة فلا شك أنه أصل في العلم النافع، والمراد أن القسطلاني حين ابتدأ شرحه هذا وبلغ أول باب في صحيح البخاري وهو باب «كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ» ذكر القسطلاني في هذا الموضع إسناده إلىٰ البخاري، فقال:

(أخبرنا به، وبما سبق من أوّله، إلىٰ آخر الصحيح: الشيخ المُسنِد رحلة الآفاق أبو العباس أحمد بن عبد القادر، وقد جاوز التسعين، بقراءتي عليه لجميع هذا الجامع، في خمسة مجالس، وبعض مجلس، متوالية، مع ما أُعيد لمفوّتين، أظنه نحو العشر، آخر يوم الأحد ثامن عشر من شوّال سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة، قال أخبرنا أبو الحسن ..)[1].

ثم واصل القسطلاني عرض أسانيده إلىٰ محمد بن إسماعيل البخاري نفسه صاحب الصحيح، إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

والحقيقة أنني في هذا الخبر الذي يرويه القسطلاني عن نفسه وشيخه، وقفت متحيرًا، هل العجب من سرعة قراءة القسطلاني، أم العجب من شيخه أبي العباس الذي بلغ التسعين، وانحنىٰ عظم

(١) القسطلاني، إرشاد الساري إلىٰ شرح صحيح البخاري، وبهامشه مسلم مع شرح النووي، المطبعة الكبرىٰ الأميرية ببولاق، الطبعة السابعة، ص(١/ ٤٩).

كهولته، ومع ذلك يتجلد ويكابد مجالس السماع المطولة، ويختم صحيح البخاري كاملًا في خمسة مجالس، وهو شيء لا يطيقه الشُبّان في عنفوان الفتوة إلا وقد أرعدوا بالتأفف ودلقوا لسان التذمر .. فاللهم تغمد رحلة الآفاق برضوانك.

- ومن العلماء الذين درسوا علىٰ القسطلاني عالم الشام في زمانه بدر الدين الغزي (ت٩٨٤هـ) وله مواقف مسجلة في ترجمته في الصدع بالحق في وجه ولاة الجور، وقد كان للبدر الغزي هذا ابن من أهل العلم أيضًا، وهو نجم الدين الغزي صاحب الكتاب التاريخي المشهور «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»، وقد شحن النجم الغزي كتابه هذا بأخبار والده ومن له صلة بهم، وكان من جملة من ترجم لهم النجم الغزي تلميذ أبيه «برهان الدين البقاعي»، وذكر عنه وعن أبيه خبرين لافتين في سرعة القراءة، حيث يقول النجم الغزي:

(برهان الدين البقاعي، قرأ علىٰ شيخ الإسلام الوالد في الأصول والعربية، وحضر دروسه كثيرًا، وقرأ عليه البخاري كاملًا في ستة أيام، أولها يوم السبت حادي عشري رمضان، وصحيح مسلم كاملًا، في رمضان سنة إحدىٰ وثلاثين، في خمسة أيام متفرقة)[1].

---

(١) الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ص(٢/ ٧٦).

ويلاحظ هاهنا أن البقاعي وشيخه البدر الغزي اختاروا شهر رمضان لجرد الصحيحين، وقرؤوا البخاري في ستة أيام، ومسلم في خمسة أيام!

- وفي كتابه الذي كرسه لأعلام القرن الحادي عشر ترجم المحبي الحنفي لأبي بكر باعلوي الشلي (ت١٠٥٣هـ)، ومما جاء في ترجمته قوله عنه: **(وكان كثير المطالعة للكتب، له جلد عظيم علىٰ قراءتها، فربما استوعب المجلد الضخم في يوم أو ليلة، ويقال أنه قرأ الإحياء في عشرة أيام، وهذا أمر عجيب بالنسبة إلىٰ أهل هذا الزمن)**[1].

والإحياء المقصود هو كتاب أبي حامد الغزالي «إحياء علوم الدين»، وهو مطبوع في خمس مجلدات، أي أنه يقرأ نصف مجلد يوميًا، ويختم كل يومين كتابًا!

-والحافظ المُحدِّث اللغوي المرتضىٰ الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) صاحب الموسوعتين الذائعتين «تاج العروس شرح القاموس»، و«شرح إحياء علوم الدين»، له معجم جمع فيه شيوخه ومن روىٰ عنهم علىٰ عادة المحدّثين، وسمّاه «المعجم المختص»، إلا أنه وسّعه وذكر فيه تلاميذه الآخذين عنه أيضًا، ولأن الزبيدي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر (١١٤٥-١٢٠٥هـ) فقد صار

---

(١) المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، ص(١/ ٩١).

هذا الكتاب موردًا ثجاجًا لتراجم وتاريخ هذه الحقبة التي وُعِك فيها العمل الترجمي، حتىٰ أن الجبرتي في تاريخه المشهور، وهو تلميذ الزبيدي، التهم كتاب شيخه هذا، حتىٰ قال الكتاني إن «الجبرتي أكل معجم الزبيدي أكلًا لما»[1]، والمراد أن من جُملة من ترجم لهم الزبيديُّ تلميذَه الذي لازمه أبا الحسن علي بن أحمد العلوي التوقادي، وذكر الزبيدي من أحواله وتلاميذه شيئًا عجيبًا في سرعة القراءة، حيث يقول الزبيدي في ترجمة أبي الحسن المذكور:

(وقرأ عليّ «الصحيح» في اثني عشر مجلسًا، في رمضان سنة ١١٨٨هـ، في منزلي بسويقة المظفّر، ثم سمع عليّ «الصحيح» ثاني مرة مشاركًا مع الجماعة، مناوبةً في القراءة، في أربعة مجالس، وكان مدة القراءة من طلوع الشمس إلىٰ بعد كل عصر، وصحيح مسلم في ستة مجالس مناوبةً بمنزلي في خان الصاغة)[2].

فإنهاء هذه المجلدات الأربع في أربعة مجالس وفي ستة مجالس، وجعل هذه القراءة الجماعية من طلوع الشمس إلىٰ العصر، أي بواقع عشر ساعات متواصلة علىٰ الأقل، هذا يؤكد مجددًا العنصرين اللذين سبقت الإشارة إليهما: الطلاقة في المطالعة، عدم الكلال.

- وهذه الأخبار السابقة سرد بعضها الشيخ العلامة جمال

---

(١) الكتاني، **فهرس الفهارس**، ص(٢/ ٦٢٣).

(٢) الزبيدي، **المعجم المختص**، تحقيق نظام يعقوبي ومحمد العجمي، دار البشائر، ص(٥٣٢).

الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ) في الفصل الذي عقده لذلك في كتابه عن مصطلح الحديث، كما سبقت الإشارة لذلك، ثم لما انتهىٰ من سياق هذه الأخبار أردف ذلك بتعليق روىٰ فيه قصةً عن نفسه، حيث يقول القاسمي:

(والعبد الضعيف، جامع هذا الكتاب، قد من الله عليه بفضله فأسمع صحيح مسلم رواية ودراية في مجالس من أربعين يومًا، آخرها في ٢٨ من شهر صفر الخير سنة ١٣١٦هـ، وأسمع أيضا سنن ابن ماجه كذلك في مجالس من إحدىٰ وعشرين يومًا، آخرها في ٢٢ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٦هـ، وأسمع -أيضًا- الموطأ كذلك في مجالس من تسعة عشر يومًا، آخرها في ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣١٦هـ، وطالعت بنفسي لنفسي «تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر، مع تصحيح سهو القلم فيه، وضبطه، وتحشيته من نسخة مصححة جدًا؛ في مجالس من عشرة أيام، آخرها في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ١٣١٥هـ. أقول: وهذه الكتب قرأتها بإثر بعضها، فأجهدت نفسي وبصرىٰ، حتىٰ رمِدْتُ بأثر ذلك، شفاني الله بفضله، وأشفقت من العود إلىٰ مثل ذلك، وتبين أن الخيرة في الاعتدال، نعم لا ينكر أن بعض النفوس لا تتأثر بمثل ذلك لقوة حواسها، وللإنسان بصيرة علىٰ نفسه، وهو أدرىٰ بها)[1].

---

(١) القاسمي، قواعد التحديث، تحقيق مصطفىٰ شيخ، مؤسسة الرسالة، ص(٤٥٤).

-وهكذا صنع الشيخ عبد الحي الكتاني (ت١٣٨٢هـ) نظير صنيع القاسمي، فإن الكتاني ساق عددًا من الأخبار السابقة، ثم عقّب بعدها بذكر قصة عن نفسه، فقال:

(وجامع هذه الشذرة، محمد عبد الحي الكتاني؛ قرأ صحيح البخاري، تدريسًا، بعنزة القرويين، قراءة تحقيق وتدقيق في نحو خمسين مجلسًا، لم يدع شاذة ولا فاذة تتعلق بأبوابه ومحل الشاهد منها إلا أتىٰ عليها، مع غير ذلك من اللطائف المستجادة، ولعله أغرب وأعجب من كل ما سبق، والله خالق القُوىٰ والقدر)[١] .

والأخبار والقصص السلفية في هذه التقنية من تقنيات الاطلاع والقراءة كثيرة جدًا، ولم يكن الهدف الاستقصاء والاستيعاب، بل الهدف ذكر نماذج منتخبة من قرون الإسلام، بما يؤكد حضور نمط (القراءة الجردية) بين أهل العلم، وأنها ليست تقنية طارئة استحدثها المعاصرون.

وقد كنت مرةً أشاهد محاضرة للداعية الأمريكي **حمزة يوسف** بعنوان (How to read a book?) أي: كيف تقرأ كتابًا؟ وشد انتباهي تنويهه بكتاب بذات العنوان، للمفكر الأمريكي مورتمر أدلر (Mortimer Adler)، وذكر حمزة يوسف أن محاضرته مستمدة من هذا الكتاب، وذكر أنه درس علىٰ المؤلف، وأن المؤلف صديق لوالده، واستمر في تثمين الكتاب، ولما بحثت عن الكتاب

---

(١) الكتاني، **فهرس الفهارس**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب، ص(٢/ ١٠٤٩).

اكتشفت أنه مترجم للعربية أيضًا، ترجمه طلال الحمصي، ونشرته الدار العربية للعلوم، بنفس العنوان (**كيف تقرأ كتابًا؟**)، وفي هذا الكتاب نبّه المؤلف علىٰ أهمية القراءة الاستكشافية السريعة المسبقة للكتاب.

كما ميّز المؤلف بين التصفح العشوائي والتصفح المنظم، وذكر أن التصفح المنظم يستهدف الإجابة عن: ما الشيء الذي يبحثه الكتاب؟ ما بنية الكتاب؟ ما أجزاؤه؟

وقد نبه علىٰ أهمية هذه القراءة الاستعراضية الأولية بقوله:

(معظم الأشخاص، بل وحتىٰ عدد كبير من القراء الجيدين؛ لا يعرفون أهمية القراءة التصفحية، إنهم يبدؤون الكتاب من الصفحة الأولىٰ، ويتقدمون بجد وثبات حتىٰ آخر الكتاب، وبدون قراءة الفهرس، إنهم في هذه الحالة يواجهون إنجاز هدف المعرفة السطحية للكتاب، بنفس الوقت الذي يحاولون به فهمه، وهذا يضاعف صعوبة الكتاب)[١].

وقد ذكر إرشادات وآليات لهذا النوع من القراءة التصفحية في الفصل الرابع[٢].

ومن أهم الإشكالات التي تطرأ في أذهان بعض القراء هو قولهم: أننا من خلال القراءة السريعة نخشىٰ أن لا نفهم؟!

---

(١) مورتيمر أدلر، **كيف تقرأ كتابًا؟**، ترجمة الحمصي، الدار العربية للعلوم، ص(٣٣).

(٢) المصدر السابق، ص(٤٧).

وهذا غير دقيق بتاتًا، فكثير من الناس يتصور أن البطء في القراءة يثمر دومًا الفهم، وهذا صحيح جزئيًا، ولكنه ليس كل شيء، بل هناك مستوىً من الفهم لا يمكن إلا بالقراءة السريعة! وهي «**التصورات العامة للكتاب**»، ولو قلت لشخص إنك بالقراءة البطيئة سيفوت عليك فهم أشياء مهمة في الكتاب لربما يستغرب، ولكن هذا أثبتته التجربة، ونبه عليه عدد من المعنيين بالمعرفة، ومن ذلك ما قاله عالم الرياضيات والفيزياء الفرنسي المعروف باسكال (ت١٦٦٢م) في رسالة صغيرة له ضمنها بعض تأملاته يقول فيها:

(When we read too fast or too slowly, we understand nothing)[1].

وترجمتها: **(حين نقرأ بسرعة شديدة، أو ببطء شديد؛ فإننا لا نفهم شيئًا)**

والحقيقة أن كون القراءة بسرعة «**شديدة**» تنتج عدم الفهم، هذا معروف وشائع، لكن كون القراءة ببطء «**شديد**» تنتج أيضًا عدم الفهم؛ فهذا تصور يغيب عن الكثير من المعنيين بالقراءة والاطلاع! بل لربما تصور بعضهم العكس، وهو أن القراءة ببطء شديد تثمر مزيد الفهم، برغم أنها تضيع الفهم!

لقد أثبتت التجربة أن التصورات العامة للكتاب ليست موجودة في «**المفردات**» بل في «**الروابط**» بين المفردات، وهذه الروابط لا

---

(١) Pascal B ، *Pensées*، no. 69

تتضح للذهن إلا إذا تم وصلها بسرعة، فأما مع الانفصال الزمني بينها فإن الذهن يشرد.

علىٰ أية حال، المقصود من هذه الفصل عرض نمط للقراءة وظّفه علماء السلف بكثافة، ونبه عليه لاحقًا علماء ومفكرون غربيون، والهدف منه المساهمة في بناء المعرفة والعلم في المجتمع المسلم، وتخيل معي لو أن طالب علم قرر جرد مطولات الاسلام في فترة وجيزة، مثل: الكتب الستة، وتفسير الطبري، وتفسير القرطبي، والتمهيد لابن عبد البر، وفتح الباري لابن حجر، والمغني لابن قدامة، ونهاية المطلب للجويني، ومجموع فتاوىٰ ابن تيمية، وتاريخ الاسلام للذهبي، فماذا سيحصل من: التصورات الشرعية الكلية، ومظان المسائل، وهياكل الفنون، ومواطن الاتفاق والاختلاف؟!

بل هل يسمح العمر بقراءة مثل هذه المطولات إلا بنمط القراءة الجردية التي طبقها السلف؟

العمر قصير، ومطولات الإسلام كبيرة، وفيها أمتع ما في الدنيا، وأخشىٰ أن تكون أوقات شباب الإسلام الذين عليهم الرهان تلتهمها مواقع التواصل الاجتماعي، والعلم والثقافة سواعد الدعوات.

التصنيف التحصيلي

تواطأت عبارات كثير من أهل العلم علىٰ التعجب والتساؤل حول كثرة مؤلفات الإمام النووي وشهرتها في الأقطار، في مقابل قصر عمره العلمي.

وقرأت وسمعت للبعض ممن يتساءل: كيف تأتّىٰ للنووي إنجاز هذه المؤلفات العلمية المبنية علىٰ التحرير والتدقيق برغم محدودية المسافة الزمنية العلمية التي كتب الله له أن يعيشها رحمه الله؟

يستطيع كثير من المعنيين بالعلم أن يكتب كتابات جمعٍ وتلخيصٍ واختصارٍ بكثرة، لكن أن يكتب كتابة تحرير وتدقيق وتحقيق، بحيث تكون هذه الكتب مرجعية لدىٰ العلماء الكبار، فهذا يحتاج غالبًا عمرًا طويلًا من الحفظ والضبط والبحث والتنقيب ومقارنة المصادر ومدارسة المسائل والتأمل والخبرة الطويلة بها، ومن هاهنا موضع الدهشة والانبهار حيال مؤلفات النووي، فمؤلفات النووي في الحديث والفقه واللغة والأعلام صارت

«مصادر مرجعية» بين المتخصصين، برغم أن النووي طلب العلم متأخرًا، ومات مبكرًا!

فالنووي ابتدأ في طلب العلم متأخرًا نسبيًا سنة (٦٤٩هـ) وكان عمره حينها كما أخبر هو عن نفسه (١٩سنة)، وهذا عمر متأخر في الطلب بالنسبة لزمانهم الذي يبتدئون فيه بطلب العلم قبل البلوغ، كما يقول النووي عن نفسه: **(فلما كان عمري تسع عشرة سنة؛ قدم بي والدي إلىٰ دمشق في سنة تسع وأربعين، فسكنت المدرسة الرواحية)**[1].

ثم توفي النووي رحمه الله سنة (٦٧٦هـ) وكان عمره حين توفي (٤٥) عامًا، والعلماء في سن الأربعين يبتدئ للتو عطاؤهم العلمي الدقيق المحرر، فلم يعمّر الشيخ رحمه الله.

حسنًا .. متىٰ ابتدأ الشيخ بالتأليف والتصنيف؟ يقول الشيخ عن نفسه أنه مكث ست سنوات في طلب العلم ثم بدأ التأليف، أي أنه بدأ التأليف وعمره (٢٥سنة)، كما يخبر النووي تلميذه ابن العطار:

(وذكر لي -رحمه الله- أنه كان لا يضيِّع له وقتًا في ليل ولا نهار؛ إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتىٰ في ذهابه في الطرق ومجيئه يشتغل في تكرار محفوظه، أو مطالعة، وأنه بقي علىٰ

---

(١) ابن العطار، **تحفة الطالبين ترجمة الإمام محيي الدين**، مطبوع ضمن كتاب الإيجاز شرح سنن أبي داود للنووي، تحقيق مشهور آل سلمان، الدار الأثرية، ص(٤٥).

التحصيل علىٰ هذا الوجه نحو ست سنين، ثم إنه اشتغل بالتصنيف)[1].

هذا يعني أن غالب مؤلفات النووي التي نتداولها اليوم ألفها وهو في العشرين والثلاثين من عمره!

وهذه التواريخ التي استندت إليها، أعني: تاريخ بداية طلب النووي للعلم، وتاريخ بدايته التأليف، وتاريخ وفاته، كلها أخذتها من رسالة ابن العطار (ت٧٢٤هـ)، وهو أشهر تلاميذ النووي وأخصهم به، والتي كتبها رحمه الله في ترجمة شيخه النووي وسمّاها (**تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين**) وعن هذه الرسالة نقل الناس أخبار النووي، وهي أوثق وأدق مصدر لترجمة النووي، ومن شدة اختصاص ابن العطار بشيخه النووي كان يسمىٰ (**مختصر النووي**) كما يقول السخاوي: (**وقد أفرد ترجمة النووي بالتصنيف خادمه العلامة علاء الدين الدمشقي، عرف بابن العطار، الذي كان لشدة ملازمته له وتحققه به، يقال له «مختصر النووي»، وهو عمدتي بل عدتي، بل عمدة كل من أتىٰ بعده**)[2].

وبالمناسبة، فهذه الطريقة في تسمية العالم بمن اختص به من عالمٍ أو كتاب، كتسمية ابن العطار «مختصر النووي» هي طريقة معروفة مشهورة، ولها أمثلة ونظائر، فمن ذلك أن «الكافيجي» (ت

---

(١) المصدر السابق، ص(٦٤).

(٢) السخاوي، **المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي**، تحقيق أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، ص(٥٩).

٨٧٩هـ)، وهو شيخ السيوطي، ليس اسمه في الحقيقة الكافيجي، بل اسمه محيي الدين البرعمي، ولكن (**لقّب بالكافيجي لكثرة اشتغاله بكتاب «الكافية» في النحو**)[١]. والكافية هي المختصر الشهير لابن الحاجب في علم النحو اختصرها من خلاصة شرحه علىٰ المفصل للزمخشري، ومن الطريف أن بعض المعاصرين المبرزين في علم التصريف، وهو الدكتور حسن العثمان، سمىٰ نفسه «الشافِيَجي» لعنايته بكتاب «الشافية» في علم التصريف لابن الحاجب أيضًا[٢].

ومن هذا الباب أيضًا لقب «الفصيحي» أحد علماء النحو، فليس اسمه كذلك، بل كما يقول ياقوت الحموي (**سمي بالفصيحي لكثرة دراسته «كتاب الفصيح» لثعلب، وصار له به أُنس**)[٣].

ومن ذلك إمام الحنابلة في زمنه «**غلام الخلال**» (ت ٣٦٣هـ) فاسمه أبو بكر عبد العزيز، ولكن لشدة اختصاصه بالخلال سمي (غلام الخلال)، وتسميته غلام الخلال ليست تهوينًا من إمكانياته الفقهية كما قد يوحي ذلك للوهلة الأولىٰ لغير المختص، فالذهبي صاحب الخبرة المعروفة في تراجم رجالات الإسلام، حتىٰ اعتُبِر من أصحاب الاستقراء التام؛ يفخّم منزلة غلام الخلال جدًا، حيث

---

(١) ابن العماد، **شذرات الذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ص(٩/ ٤٨٨).

(٢) ابن الحاجب، **الشافية في علمي التصريف والخط**، تحقيق د. حسن العثمان الشافِيَجي، المكتبة المكية.

(٣) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب، ص(٥/ ١٩٦٤).

يقول الذهبي في سير النبلاء (**قلت: ما جاء بعد أصحاب أحمد مثل الخلال، ولا جاء بعد الخلال مثل عبد العزيز، إلا أن يكون أبا القاسم الخرقي**)[1].

وابن العطار هذا هو -أيضًا- من شيوخ الذهبي (ت٧٤٨هـ)، وهو كذلك أخو الذهبي من الرضاع، ونقل الذهبي في كتبه ترجمة النووي من رسالة ابن العطار شيخه المشار إليها، ونقل الذهبي أشياء عن ابن العطار ليست في رسالته، فيبدو أن الذهبي أخذها من شيخه ابن العطار مشافهة، أو أن ثمة اختلاف في نسخ تحفة الطالبين، ولم تصلنا النسخة الأتم.

حسنًا .. لنعد الآن إلىٰ التساؤل المطروح: كيف تأتّىٰ للنووي تأليف هذه المؤلفات الكبيرة المرجعية ذات الوزن المصدري برغم أنه طلب العلم متأخرًا نسبيًا وعمره (١٩) سنة، وتوفي مبكرًا وعمره (٤٥) سنة، رحمه الله؟

هناك أطروحات متعددة في تعليل ذلك، لكن من أطرف وأعجب هذه التفسيرات، تفسير أشار إليه العلامة **جمال الدين الإسنوي** (٧٧٢هـ) صاحب الكتاب المشهور (التمهيد في تخريج الفروع علىٰ الأصول)، ذلك أن الإسنوي له كتاب آخر من المطولات لم يشتهر بعد بين الباحثين المعاصرين بسبب تأخر طباعته، إذ لم يولد علىٰ رفوف المكتبات إلا عام ١٤٣٠هـ، وبقي

---

(١) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، ص(١٦/ ١٤٤).

مخطوطًا كل هذه السنوات، وكتابه هذا اسمه (**المهمات في شرح الروضة والرافعي**) وهو كتاب يقع في عشرة مجلدات، علىٰ طريقة البسط والتوسع لا الاختصار، واشتغل فيه الإسنوي بدراسة المسائل التي ذكرها النووي والرافعي دراسة نقد ومقارنة وتمحيص، تميل إلىٰ الصرامة والقسوة أحيانًا، ومن الواضح منزلة كتاب المهمات في نفس الإسنوي نفسه، حتىٰ أنه يشير إليه وينوه به كثيرًا في كتابه (التمهيد في تخريج الفروع علىٰ الأصول)، وفي كتاب (المهمات) نقولات لا تكاد توجد في كتب الشافعية بسبب أن الإسنوي كما يقول عن نفسه: (**وقد تيسر لي بحمد الله من مؤلفات الشافعي والأصحاب، خصوصًا الأقدمين؛ ما لم يطرق اسمه بالكلية أذن أكثر المكثرين، ولم أعلمه قد اجتمع في مدينتنا عند أحد من العصريين، هذا وهي اليوم أعظم مدن الإسلام**)[١].

المهم أن الإسنوي في كتابه الضخم هذا تعرض لشيء من سيرة النووي، وطرح تفسيرًا لتساؤل (كثرة مؤلفات النووي برغم قصر عمره العلمي). تأمل معي تفسير الإسنوي ودعنا نناقش معطياته، حيث يقول الإسنوي في معرض ذكر التفاوت في مواضع من الروضة:

(**ووقوع هذا للشيخ محيي الدين النووي أكثر، وذلك أنه لما تأهل للنظر والتحصيل، رأىٰ من المسارعة إلىٰ الخيرات أن جعل**

(١) الإسنوي، المهمات في شرح الروضة والرافعي، تحقيق الدمياطي، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ، ص(١/ ٩٤).

ما يحصله ويقف عليه تصنيفًا، ينتفع به الناظر فيه، فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا ..، ولولا ذلك لم يتيسر له من التصانيف ما تيسر، فإنه رحمه الله دخل دمشق للاشتغال وهو ابن ثمانية عشرة سنة، ومات ولم يستكمل ستًا وأربعين)[1].

لا أستطيع أن أواري دهشتي من براعة هذه العبارة للإسنوي (فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا) وهو تعبير يمهد الطريق لنحت مصطلح (التصنيف التحصيلي).

ومراد الإسنوي أن النووي جعل تأليفه وسيلة للتحصيل وطلب العلم، وجعل طلبه وتحصيله للعلم في صيغة مؤلفاتٍ فورًا، أي أن تقييداته أثناء طلب العلم يجعلها في صيغة مؤلفات، بدلًا من أن تذهب مقيدات الشباب سدىٰ.

وهل هذا الأمر حدث اتفاقًا للنووي، أم كان سلوكًا واعيًا، بمعنىٰ أن النووي كان يستحضر فائدة التأليف في تعليم المؤلف ذاته؟ الحقيقة أن ثمة عبارة للنووي قالها في كتابه الآخر «شرح المهذب» تكشف أن عنايته المبكرة بالتأليف كانت لأهداف التعلم الذاتي، حيث يقول النووي في مقدمته التي شرح فيها آداب طالب العلم:

(وينبغي أن يعتني بـ«التصنيف» إذا تأهل له، فبه يطلع علىٰ حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه، لأنه يضطره إلىٰ كثرة التفتيش

---

(١) المصدر السابق، ص(١/ ٩٩).

والمطالعة والتحقيق والمراجعة، والاطلاع علىٰ مختلف كلام الأئمة ومتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد)[1].

فالنووي هاهنا لا يحث علىٰ التصنيف فقط، بل يكشف الاعتبارات الدافعة للتصنيف، ويسهب في شرح أثرها في الصعود بتصورات طالب العلم، من جهة أنها تلجئه إلىٰ التمعن.

وهل فكرة التصنيف التحصيلي، أو «التأليف بهدف التعلم» تصور منفرد؟ أو تصور متأخر إلىٰ عصر النووي؟ لا، طبعًا، فثمة شواهد قبل ذلك بقرون، ومن أجمل تلك الشواهد عبارة نقلها حافظ الدنيا في عصره الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) عن أشياخه، ذلك أن الخطيب تحدث عن أهمية التأليف، ثم نقل عبارة تحث علىٰ تحويل الكتابة الشخصية للتعلم إلىٰ كتابة تصنيفية، يقول الخطيب: (**ينبغي أن يفرغ المصنف للتصنيف قلبه، ويجمع له همه، ويقطع به وقته، وكان بعض شيوخنا يقول «من أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ وليأخذ قلم التخريج»**)[2].

بالله عليك ألم تجد طعم هذه العبارة في حلقك «فليكسر

---

(١) النووي، **المجموع شرح المهذب**، تحقيق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، ص(١/ ٥٦).

(٢) الخطيب، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ص(٢/ ٤٢٨).

قلم النسخ، وليأخذ قلم التخريج»؟!

لكن ما معنىٰ هذه العبارة؟ علّق علىٰ هذه العبارة **البقاعي** (ت٨٨٥هـ) تلميذ الحافظ ابن حجر، حيث قال: (أي: **لأن الناسخ لا يتأمل في الغالب ما يكتبه، وإن تأمّل لم يُمعِن، بخلاف المخرِّج، فإنه يحتاج أن يتأمل حق التأمل**)[1].

ولا يبعد أن يكون هذا الشرح لابن حجر نفسه، ذلك أن غالب ما في كتاب النكت الوفية للبقاعي إنما هو تقييدات للبقاعي من تعليقات شيخه ابن حجر علىٰ شرح التبصرة والتذكرة.

والمراد أن هذا التعليق في كتاب البقاعي علىٰ العبارة التي نقلها الخطيب عن شيوخه تقودنا إلىٰ الوقوف علىٰ مبررات ومستندات هذه المقولة، وهي أن من يشتغل بنسخ العلم وكتابته لنفسه لا يكون في قوة التأمل والتمعن والفحص كمن يكتب ليخرّج، لأن التخريج يستدعي المقارنة والموازنة، وهذا يساند التحليل السابق المذكور في كلام النووي حين قال «لأن التصنيف يضطره إلىٰ كثرة التفتيش والمراجعة»، بما يعني أن «مقارنة المصادر ينبوع التحقيق»، وهكذا شأن التصنيف والتأليف.

ولاحظ في هذه العبارة التي نقلها الخطيب البغدادي عن شيوخه أنها تدعو طالب العلم أن يتوقف عن مرحلة معينة من طلب

---

(١) البقاعي، **النكت الوفية بما في شرح الألفية**، تحقيق ماهر الفحل، مكتبة الرشد، ص(٢/ ٣٩٤).

العلم، وينتقل إلىٰ مرحلة أخرىٰ، فينتقل من التلقي المحض، إلىٰ التلقي بالمقارنة والتمحيص، فالنسخ نقل صِرف، والتخريج يستلزم المقارنة بين المعطيات الحديثية.

ولاحظ -أيضًا- كيف ساق الخطيب البغدادي هذه العبارة «من أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ وليأخذ قلم التخريج» في موضع الشاهد علىٰ فائدة التصنيف، ذلك أنه لما ذكر التصنيف والتأليف وأهميتهما ساق هذه العبارة مساق الشاهد والتعزيز.

ولاحظ أيضًا -وهذا هو الأهم- أن هذه المقطع الذي يتحدث فيه الخطيب البغدادي عن التصنيف؛ ليس المقصود به الانتقال للتصنيف لنفع الناس، بل المقصود به التصنيف لإفادة الطالب نفسه، ذلك أنه صدّر هذه العبارة بقوله (من أراد الفائدة) بما يعني أنها وصية للطالب الذي قطع شوطًا بأن يبدأ يصنف ليستفيد.

ثم إن بعض المشتغلين بالعلم من المتأخرين لما تكلموا في أغراض التأليف وغايات المصنفين، أشار بعضهم إلىٰ هذا المعنىٰ، وهو أن طالب العلم يؤلف ويصنف ليبني نفسه علميًا، فمن ذلك المؤرخ الوراقي البحاثة التركي **حاجي خليفة** (ت ١٠٦٧هـ)، وهو من أعاجيب الدنيا في الخبرة بالكتب والمصنفات، حتىٰ أن **الزركلي** (ت ١٣٩٦هـ) في حديثه عن بعض الكتب يكتفي بقوله: (رآه حاجي خليفة)!

فقد عقد **حاجي خليفة** فصولًا بديعة في مطلع كتابه **(كشف الظنون)** تحدث فيها عن **(أحوال العلوم)**، ومن ذلك الفصل الذي

سماه (**الترشيح الثالث: في أقسام المصنفين، وأحوالهم**) حيث يقول فيه: (**ومنهم: من جمع وصنّف للاستفادة، لا للإفادة، فلا حجر عليه، بل يرغب إليه إذا تأهل، فإن العلماء قالوا: ينبغي للطالب أن يشتغل بالتخريج والتصنيف فيما فهمه منه**)[1].

فحاجّي خليفة أصل في الخبرة بتاريخ التأليف والتصنيف في الإسلام، وهاهو يشير إلىٰ أن بعض أهل العلم صنّف بغرض أن يفيد نفسه أساسًا.

ولذلك تجد في مقدمات كثير من كتب أهل العلم قولهم أنه صنفه لنفسه أصالةً، كقول الخلوتي في مقدمة كشف المخدرات: (**ولكن علقته لنفسي، ولمن شاء الله تعالىٰ من بعدي من الإخوان**) وكقول ابن ضويان في مقدمة منار السبيل: (**وإنما علقته لنفسي، ولمن فهمه قاصر كفهمي**) ونحو هذه العبارات كثيرة جدًا في مقدمات كتب أهل العلم، بل تجد كثيرًا من أهل العلم يقول عن كتاب معين له أن جمعه لنفسه، ولم يكن يعزم نشره، لكن رآه بعض الناس فأشار عليه بإخراجه.

ومن النماذج المعاصرة التي لفتت انتباهي تجربة الشيخ د.سفر الحوالي، فقد كانت قراءة الشيخ واطلاعه كله في التراث الإسلامي، وخصوصًا المصنفات العقدية لأهل السنة ومكتبة شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكنه لما سجل رسالة الماجستير في العلمانية

---

(١) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار إحياء التراث، ص(١/ ٣٨).

اضطرته الرسالة للاطلاع الاستعراضي المنظم علىٰ أصول العلوم الإنسانية الغربية، حيث يقول الشيخ عن نفسه في كتابه «العلمانية»:

(وقد عرفت منذ اللحظة الأولىٰ أن مهمتي ليست بيسيرة، وأن عليَّ أن أخوض في ميادين بعيدة عن مجال دراستي الشرعية البحتة، جاعلًا كل قراءاتي السابقة في الفكر الغربي بمثابة التمهيد فقط لما يجب علي أن أنهض به، وفعلًا خصصت نصف المدة المحددة للرسالة -تقريبًا- في اطلاع دائب وقراءة متواصلة، فاطلعت علىٰ أمهات النظريات والاتجاهات في السياسة، والاقتصاد، والعلم، والاجتماع، والأدب، والفن، وكنت كلما ازددت إيغالًا في الاطلاع ازدادت ثقتي، وقوي عزمي علىٰ إكمال الطريق، ومع أن المراجع المذكورة آخر الرسالة لا تساوي إلا جزءًا مما قرأت، فإنني لا أشعر بشيء من الخسارة، بل أحمد الله تعالىٰ الذي أراني الفكر الجاهلي الأوروبي علىٰ حقيقته)[١].

فبالله عليك لولا أن الله قدّر أن يكتب الشيخ سفر هذه الرسالة هل كان سيأخذ هذه الجولة المنظمة في العلوم الإنسانية المعاصرة؟! وهذا الاطلاع علىٰ الفكر المعاصر بالإضافة لتكوينه الشرعي المؤصل، هو الذي وهب الشيخ سفر فرادته الخاصة، فانظر أثر التصنيف والتأليف علىٰ المؤلف نفسه!

وأتذكر مرةً أن أحد أصدقائي في كلية اللغات والترجمة، كان

---

(١) الحوالي، **العلمانية**، دار الهجرة، ص(١١).

متخصصًا في اللغة الفرنسية، ويحدثنا عن أيام دراستهم، ويقول أن مشروع التخرج في كليتهم هو اختيار كتاب باللغة الفرنسية وترجمته، ويقارن مقارنة مدهشة ويقول: أن كل ما درسه عن اللغة الفرنسية أيام الكلية في كفة، وترجمته للكتاب في كفة أخرىٰ، وأنه استفاد من مشروع التخرج أضعاف ما تلقاه في المحاضرات تلقيًا محضًا مباشرًا، ويتحدث حديثًا وجدانيًا عن الليالي التي سهرها يتفحص عبارات في الكتاب الذي سيترجمه ويقارنها بالقواميس والمراجع.

حسنًا .. هل هذا قاصر علىٰ «التصنيف»؟ لا، طبعًا، بل سائر أنواع الإنتاج والعطاء العلمي مفيدة في التحصيل، فمثلًا: (تدريس العلم) يظن بعض الناس أنه مرحلة تأتي بعد الانتهاء من العلم، وهذا غير دقيق، بل تدريس العلم وسيلة من وسائل التعلم، فإذا قطع طالب العلم شوطًا في العلم، فيبدأ بتدريس من دونه، ويلاحظ كيف تتفتح له أغوار المسائل، ويتبين له فيها من التفاصيل والفروق والتدقيق في الصور والاستدلالات ما لم يتنبه له سابقًا.

وقد سمعت بأذني كثيرًا من طلبة العلم يتحدثون عن أثر اشتغالهم بـ(تدريس العلم) في تمتين وتعميق تصوراتهم العلمية، وإشعال حماسهم للمراجعة والتأمل والبحث والنظر، بل بعضهم يشير إلىٰ أن غرضه الأساس من انهماكه في تدريس العلم تحول من هدف تبليغ العلم، إلىٰ هدف الاستعانة بالتدريس علىٰ التعلم والتحصيل، لما رأىٰ من فائدته له شخصيًا.

وهذه الظاهرة، أعني دور التعليم في ترسيخ العلم في نفس المعلم نفسه؛ نبّه عليها بعض أئمة التابعين، بل صوّروها في صور تأكيدية، كقول النخعي: (**إذا سمعت حديثًا فحدِّث به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتاب في صدرك**)[١].

بل إن الخليل بن أحمد سمىٰ التعليم دراسة! وهذا غاية ما يمكن من الربط بين التعليم والتعلُّم، كما قال الخليل بن أحمد: (**اجعل تعليمك دراسة لعلمك**)[٢].

ومن الأخبار الطريفة في هذا السياق القصة المروية عن الإمام المحدث إسماعيل بن رجاء الكوفي، وهو ممن خرج له مسلم في صحيحه، حيث يروي الأعمش عن إسماعيل بن رجاء (**أنه كان يجمع صبيان الكتّاب، فيحدِّثهم، لئلا ينسىٰ حديثه**)[٣].

وسأنقل شاهدًا طريفًا حول مسألة أثر تدريس العلم في تعميق تصورات المعلّم نفسه قبل المتلقين، وهو مثال من خارج الدائرة الإسلامية، ألا وهو الناقد الأدبي الأشهر إدوارد سعيد (ت ١٤٢٤هـ)، حيث لاحظ كيف أنه أثناء عملية التدريس ذاتها تتفتح له تصورات لم تكن علىٰ باله أثناء التحضير، بل وأصبحت هذه الأفكار التي تطرأ له أثناء التدريس يستثمرها ويدونها في مؤلفاته، وعنون إدوارد

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦٦٦١).

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق محمد كريم راجح، دار إقرأ، ص(٩٢).

(٣) سنن الدارمي (٦٢٩)، جامع بيان العلم ص(١٣٩).

سعيد لهذا الأمر عنوانا في أحد كتبه سماه (لطالما تعلّمت أثناء الدرس) يقول في هذا الفصل:

(أنا أدرّس منذ أربعين عامًا تقريبًا، ولطالما تعلمت أثناء الدروس نفسها. أفتقد لشيء ما عندما أقرأ وأفكر من دون وجود طلاب، ولذلك طالما اعتبرت دروسي ليست روتينًا يفترض القيام به، بل تجربة بحث واستكشاف، وأعتمد كثيرًا جدًا علىٰ ردات فعل طلابي. عندما بدأت التدريس في أيامي الأولىٰ، كنت أفرِط في التحضير، كنت أخطط لكل ثانية من الدرس. فيما بعد، اكتشفت أن تعليقات الطلاب يمكنها أن تحفّز أفكارًا ونقاشات لم أكن أتوقعها مسبقًا، وفي كثير من الأحيان كان ذلك يجد مكانه في كتاباتي)[1].

في هذا النص يشير إدوارد سعيد إلىٰ طريقته السابقة في تحضير دروسه، وهو أنه كما يقول عن نفسه (كنت أخطط لكل ثانية من الدرس) ثم اكتشف أن ما تثيره عملية التدريس ذاتها من أفكار وتصورات أعمق بكثير من التفاصيل المعدّة مسبقًا، فلذلك تحول إلىٰ إتاحة الوقت لهذا العامل ليستثمر هذه التدقيقات والانبلاجات والحدوس، فتنعكس لاحقًا علىٰ أبحاثه وكتبه.

أحد أقراني في طلب العلم كان يلتمس منه بعض المربّين أن

---

(١) إدوارد سعيد، **السلطة والسياسة والثقافة**، ترجمة نائلة حجازي، دار الآداب، ص(٣٠٥).

يلقي دروسًا علىٰ بعض المبتدئين في طلب العلم من طلاب حلقات تحفيظ القرآن، فكان يمتنع مستحضرًا معاني وجوب التواضع وهضم النفس وأن هذا من التصدر المبكر ونحوها، ثم إن ظروفه الأكاديمية ساقته سوقًا للتدريس فتفاجأ بأثر التدريس في فهم العلم وتحقيقه وتحريره والتدقيق في معانيه، فصار مشغوفًا بأي فرصة تدريس لما يتحرىٰ فيها من الأثر العلمي علىٰ نفسه، ثم إنه بعث لي برسالة شخصية بديعة جدًا، يتحدث فيها عن تجربته، وهذا نصّها:

(ظللت زمانا أمتنع عن تدريس بعض المتون الصغيرة التي كنت أظنني أتقنتها، وفي الفصل الماضي اضطررت بسبب الوظيفة لتدريس بعض المسائل الشرعية، فإذا بي أكتشف أن المستفيد الأكبر من التعليم هو المعلِّم، هذه حقيقة لا يدركها إلا من جرب؛ فثمة ثغرات بيّنة في فهم بعض المسائل لا تنكشف إلا في قاعة الدرس، بل ثمة استنباطات وفتوحات، وربط بين الأبواب لا يتجلىٰ إلا مع التدريس، ولعل هذا من بركة نشر العلم وتعليمه. بعد رسوخ هذا القناعة أصبحت -والله يشهد- أبحث عمن أشرح له بعض المتون، وصرت أتصل ببعض الإخوان باحثًا عن طلاب علم يريدون استشراح متن! كنت من زاوية أخرىٰ أبحث عن من آخذ منه بركة التعليم!). اهـ

وأنا بدوري أنقل هذه التجربة عن صاحبي لما ألتمس فيها من تحفيز طلاب العلم المتميزين علىٰ نشر العلم وتبليغه، لما يرجونه

من الأثر العلمي علىٰ أنفسهم أولًا، وأن التدريس مفتاح من مفاتيح تحقيق العلم، وتحرير مسائله.

حسنًا .. لنضع الآن الشواهد الثلاثة السابقة أمام ناظرينا مجددًا ولنجعلها مفتاحًا لمناقشة بعض الظواهر في بيئتنا العلمية، هذه النماذج الثلاثة السابقة هي:

١- قول الإسنوي عن النووي (**فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا**)

٢- وقول الخطيب البغدادي (**وكان بعض شيوخنا يقول «من أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ وليأخذ قلم التخريج»**).

٣- وقول حاجي خليفة (**ومنهم: من جمع وصنّف للاستفادة، لا للإفادة**).

هذه الشواهد الثلاثة تقودنا إلىٰ مناقشة تصور منتشر وشائع، وهو أن التأليف والتصنيف لا يكون إلا بعد الانتهاء من طلب العلم، وانقضاء مرحلة التحصيل، وهذا تصور تسبب في أضرار علىٰ الحالة العلمية والتصنيفية.

تأمل الآن لمحات من احتياجاتنا العلمية: يحتاج عموم الناس اليوم إلىٰ تيسير العلم وتقريبه لهم، ويحتاج المبتدئون في العلم في كافة الأصقاع في المدن والقرىٰ إلىٰ تكثيف فرص الدروس التي تتلاقي وتستجيب لاحتياجات الطلاب المتنوعة من حيث مستوىٰ الدرس ووقته اليومي، وتتوالىٰ مسائل النوازل التي تثير التعطش

الشديد لدىٰ الشباب للبحوث والدراسات التي تعالجها، وتطلب المؤسسات المصرفية والزكوية كثيرًا من أبحاث الفقه المالي، ويتساءل الأطباء عن كثير من صور التداوي وأحكامها الشرعية، وتثير أحداث الربيع العربي كثيرًا من مسائل فقه السياسة الشرعية بصورة ملحة جدًا، ويثير أسرىٰ الثقافة الغربية الغالبة شبهات ومسائل كثيرة في الفضائيات، والصحافة التقليدية، ومواقع التواصل الاجتماعي، حول أحكام المرأة أو الحسبة ونحوها، تحتاج لأوراق علمية رصينة تناقشها، ونحو ذلك من احتياجات المجتمع.

وبالمقابل: تأمل في الظاهرة العلمية تجد كثيرًا من طلاب العلم المتميزين، والأكاديمين الجادّين، وتأمل مثلًا طلبة العلم القادرين علىٰ البحث ممن ينشرون بعض مشاركاتهم في المنتديات العلمية الجادّة: كملتقىٰ أهل الحديث، وملتقىٰ أهل التفسير، وملتقىٰ أهل اللغة، والمجلس العلمي، ونحوها.

وتأمل في كثير من الأقسام العلمية في الكليات الشرعية، فلا تجد قسمًا إلا وفيه ثلة علمية مميزة انتسبت للقسم لدواعي العلم، لا لدواعي وظيفية أو اجتماعية.

فإذا تأملت العلاقة بين احتياجاتنا العلمية الواقعية الماسة، والكوادر المتميزة القادرة علىٰ البحث والكتابة؛ رأيت هناك نوعًا من الفتور في التجاوب السريع ونشر الأبحاث والأوراق العلمية، ومناقشة الأبحاث والدراسات المنشورة، وإشعال الوسط العلمي

بالإنتاج والتداول والتتميم والنقد والاعتراض والتعزيز، برغم وجود قدر مشكور طبعًا من الدراسات، فأنا لا أرتاح لمسلك القسوة في تصوير الواقع، والإسراف في النقد الذاتي، ونكران المنجزات.

والحقيقة أنني عرضت هذا الموضوع علىٰ كثير من المتخصصين المتميزين، من طلاب علم مستقلين أو أكاديميين، وكنت أسألهم: لماذا لا يكتبون وينشرون ويعالجون المسائل التي يفور بها المجتمع اليوم؟

فرأيت كثيرًا منهم يتحدث عن أنه يؤجل هذه المشروعات حتىٰ ينهي طلب العلم ويكمل مشواره العلمي ونحو هذه العبارات، والحقيقة أن هذا العذر فرع عن تصوُّر أن التصنيف وسيلة عطاء محض، وهذا تصور خاطئ، فالتصنيف والتأليف هو وسيلة تلقٍ أيضًا، ووسيلة لتمتين التأصيل العلمي لطالب العلم كما تمت الإشارة إليه في الشواهد السابقة.

وقد يقول البعض إن دعوة طلاب العلم للتصنيف والتأليف والبحث والنشر قد يدعو غير المؤهلين لتوريط أنفسهم، إضافة إلىٰ أن المكتبات تغص بدراسات غير مؤصلة.

والجواب أن هذا المحذور للأسف لم يعِق إلا المتميزين، ولم يلتزم بهذا التصور إلا طلاب العلم الجادّين، أما المتسورون علىٰ العلم وأصحاب «التأليف للتجارة»، فهؤلاء هم الذين قفزوا علىٰ هذا المحذور، ولذلك أصبح طالب العلم المؤهل اليوم يفر من التأليف والنشر، وغيرِ المؤهل يلقّم ماكينات المطابع . .

ودعنا نضرب مثلًا لفكرة عملية للتأليف بهدف التعلم: لو أن طالب علم أراد أن يدرس علم أصول الفقه -مثلًا- ويؤصل نفسه فيه، فلو حفظ متنًا معتمدًا، أو عمد إلىٰ القراءة والتأمل والاستظهار في كتاب مميز: كالمستصفىٰ، أو إحكام الآمدي، أو التحبير للمرداوي، أو البدر الطالع للمحلي؛ لحصل شيئًا جيدًا.

لكن لو أن هذا الطالب جعل تصنيفه تحصيلا وتحصيله تصنيفًا، فجعل له مشروعًا -مثلًا- في شرح مختصر التحرير لابن النجار، فيأخذ كل مسألة من مسائله، ويجعلها كالترجمة للباب أو العنوان، ويقرأ المصادر ويقارن ويوازن بينها في كل مسألة، ثم يكتب حصيلة تأمله في المصادر في شرح هذه الفقرة من المتن، لكان هذا الطالب إذا انتهىٰ من شرح الكتاب قد حصّل هدفين:

فالهدف الأول: أنه الآن قد وازن وتأمل مسائل أصول الفقه بالمقارنة بين المصادر فحققها وحررها ودقق فيها، وقد أثبتت التجربة أن (**مقارنة المصادر ينبوع التحقيق**). **والهدف الثاني** أنه يجد نفسه أمام مصنَّف قد انتهىٰ منه يحسن أن يدفعه لمن يراجعه من المختصين ويصححه وينقحه، ثم يستشيرهم في طباعته ونشره، فيجعله الله له -بإذن الله- من العمل الباقي بعد الموت.

وهكذا تعلم وصنّف في ذات الوقت، وكسر قلم النسخ وأخذ قلم التخريج، ولا أشك طرفة عين أن من تعلم أصول الفقه بهذه الطريقة فقد وصل لدرجة التحقيق في العلم، بخلاف من اكتفىٰ بالتعلم بطريقة حفظ متن أو استظهار كتاب متوسط، فالحافظ أو

المستظهر لا يدرك إلا قولًا واحدًا منقولًا، وأما من حقق وحرر فهو الذي يقف علىٰ أدغال العلم وأعماقه وأغواره، ويفرز الصور ويحرر الاستدلالات، وفي كلٍ خير.

والهدف من هذا الفصل تنشيط البحث والتأليف بين طلبة العلم المتميزين المتهيبين من التصنيف ظنًا منهم أنه مرحلة تكون بعد الانتهاء من طلب العلم، وغفلتهم عن كون التصنيف من وسائل التعلم، وهكذا سائر أوجه الإنتاج والعطاء، كتدريس العلم، والقضاء، والفتيا، والخطابة، ونحوها، فكلها وسائل تعلّم للشخص ذاته أولًا.

وأسأل الله أن نرىٰ ذلك اليوم الذي تلتهب فيه ساحتنا العلمية بالدراسات المتجاوبة فوريًا مع احتياجات المجتمع، بالتصنيف والتكميل والنقد والاعتراض والتلخيص والتقريب والتهذيب، وإنما يحيا العلم ويتنفس في مثل هذه المناخات الحيوية النشطة.

القسم الثاني

لقاء العظيمين

تخيل معي أنه قد اجتمع اليوم أهم رمزين من رموز الفكر العربي .. أو أهم رجلين من رجال السياسة في عالمنا العربي ..

أو دع المقترح يكون أكثر مرونة .. ولنتخيل اجتماعًا انعقد اليوم يضم أهم شخصيتين في العالم الإسلامي ..

برأيك .. وفي تقديرك: ما الموضوع الذي تتوقع أن يفتح علىٰ طاولة الاجتماع؟

هل تتوقع -مثلًا- أن يكون الموضوع عن الحرية؟ أم ربما يكون موضوع الاجتماع عن النهضة والحضارة والتنمية؟ أم عن البطالة والإسكان؟ أم عن تطورات الإعلام؟ أم أزمة الاقتصاد؟

أم عن ماذا يا ترىٰ؟

ما أعظم ملف يمكن أن يليق باجتماع أهم شخصيتين فكريتين، أو أهم شخصيتين سياسيتين في العالم العربي أو الإسلامي؟

حملق في ذهني هذا السؤال المتخيّل بينما كنت أقرأ خبرًا موثوقًا عن اجتماع أهم شخصيتين في تاريخ العالم .. وأدهشني جدًا الموضوع الذي دار الحوار بينهما علىٰ أساسه ..

ربما يعود السبب إلىٰ أننا تعودنا علىٰ نمط معين من الأجندات والقضايا في الاجتماعات الهامة .. ولذلك اندهشت من موضوع هذا اللقاء بين أعظم شخصيتين في تاريخ البشرية ..

أو ربما يعود الأمر إلىٰ ذوق فكري معين تعودنا عليه في ترتيب القضايا المرتبطة بالشأن العام .. فصارت هرمية الأولويات الفكرية الخفية في أذهاننا تتحكم في مفكرة اجتماعاتنا رفيعة المستوىٰ ..

المهم .. أنني متأكد أن مزاج القارئ المعاصر يتحرك في مسار غير المسار الذي وصل إلىٰ مستواه هذان العظيمان في تاريخ النوع الإنساني ..

وبشكل خاص: فَهْمُ هذين العظيمين للقضايا المصيرية والحاسمة التي تستحق أن تنفق فيها الاجتماعات وتبذل فيها الأوقات ..

علىٰ أية حال .. أشعر أن صديقي القارئ الآن متشوف للاطلاع علىٰ قصة هذا الاجتماع لأهم رجلين مشيا علىٰ هذا الكوكب ..

لا بأس .. دعني أنقل لك الآن هذا الخبر التاريخي عن

اللقاء عالي الطبقة الذي ضم أهم شخصيتين إطلاقًا في أرشيف بني آدم ..

عفوًا .. أحببت أيضًا أن أؤكد أن مكان اللقاء هو أيضًا مكان متفرد .. موقع استثنائي .. يليق بعظمة هاتين الشخصيتين .. فقد تم تحديد مكان الاجتماع في منزل لا يصله أكثر الناس .. بل هو موقع خاص لفئة معينة من القادة والمؤثرين ..

أما الشخصيتان محل اللقاء .. فبدهي طبعًا أن أهم وأعظم وأجلّ شخصيتين في تاريخ النوع الإنساني كله هما:

إبراهيم بن آزر بن ناحور .. ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب .. صلىٰ الله عليهما وآلهما وسلم.

وكون هذين هما أفضل رجلين خلقهما الله، هذه حقيقة معروفة عند المسلمين .. خذ مثلًا قول ابن تيمية: **(وأفضل الخلق: محمد ﷺ، ثم إبراهيم صلىٰ الله عليهما وسلم)**[(١)].

وقال ابن تيمية أيضًا: **(فصلٌ: وأفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ إبراهيم الخليل)**[(٢)].

حسنًا .. لا شك أن محمد وإبراهيم الخليلين -صلىٰ الله عليهما وآلهما وسلم- هما أعظم شخصين في تاريخ البشرية ..

---

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، ص(٢/ ٨٣٣).

(٢) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٤/ ٣١٧).

فلننتقل الآن إلىٰ جوهر الموضوع:

متىٰ التقيا؟ واين كان موقع الاجتماع؟ وما موضوع الاجتماع الذي دار الحوار بينهما علىٰ أساسه؟

التقىٰ محمد بإبراهيم -صلىٰ الله عليهما وسلم- لما أسري برسول الله ثم عرج به إلىٰ السماء السابعة.

حيث جاء في صحيح البخاري في قصة الإسراء والمعراج:

(ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت من هذا؟ قال: هذا إبراهيم)[1].

وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ التقىٰ بإبراهيم، وإبراهيم مسند ظهره إلىٰ البيت المعمور، والله أعلم.

وأما الموضوع الذي دار بينهما .. والقضية التي فتحت في الاجتماع .. والرسالة الهامة التي أراد إبراهيم إيصالها لأمة محمد .. فقد رواها عن النبي ﷺ أربعة من الصحابة وهم ابن مسعود، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وابن عباس.

واستمع إلىٰ هذه الرواية التي رواها هؤلاء الصحابة عن قصة اجتماع أهم شخصيتين في العالم .. والموضوع الذي تركّز الاجتماع عليه:

(قال رسول الله ﷺ لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٢).

يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[1].

والحديث حسنه الترمذي عقب تخريجه له، وحسّنه ابن حجر[2]، واستشهد بهذا الحديث ابن رجب وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من أهل العلم كما سيأتي، ولبعض الأئمة المتقدمين كلام عن بعض طرقه[3].

حسنًا .. لا يمكن أن يمر القارئ بهذا الحادثة في اجتماع محمد وإبراهيم الخليلين -صلىٰ الله عليهما وسلم- في السماء ليلة الإسراء إلا وتستولي عليه الدهشة من هذا الأمر الذي اهتم به إبراهيم الخليل وطلب من نبينا محمد -صلىٰ الله عليهما وسلم- أن يوصله لنا ..

بمجرد أن يقرأ المسلم قول أبينا إبراهيم **(يا محمد أقرئ أمتك مني السلام)** فإنه يشعر بشيء من حنين الانتماء والصلة ..

إنه أبونا إبراهيم مهتم بنا .. ويوصل سلامه لنا عبر محمد صلىٰ الله عليهما وسلم ..

إنه أبونا إبراهيم يسلم علينا .. وهو أبونا بنص القرآن ﴿مِّلَّةَ

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٦٢)، مسند أحمد (٢٣٥٥٢)، وغيرهم.

(٢) ابن حجر، **نتائج الأفكار**، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، ص(١/ ١٠١).

(٣) ابن أبي حاتم، **كتاب العلل**، أشرف علىٰ تحقيقه د. سعد الحميد، ص(٥/ ٣٠٩).

أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨] وفي معنىٰ الأبوة هاهنا أقوال ذكرها أهل التفسير . .

أيُّ إحساس بالأهمية والمكانة يشعر به المسلم وهو يقرأ أن إبراهيم خليل الله مهتم بالسلام عليه؟!

وثمة بعد آخر في منزلة هذه الوصية وهي أن إبراهيم الخليل ﷺ رجلٌ ارتحل الآن إلىٰ ربه . . وهو الآن أخبر ما يكون بأنفع شيء لمن لم يمت بعد . .

فتخيل أن رجلًا ذهب إلىٰ الله، ثم يرسل لك وصية بعد أن انتقل عن الدنيا؟ فكيف ستكون أهمية وصيته؟

فهذا إبراهيم أعلم الناس بالله بعد نبينا يرسل لنا وصيةً بعد موته وارتحاله عن هذه الدنيا . . إنها وصية قادمة من رجل سبقنا في الرحلة إلىٰ المستقبل الأبدي . . فكأنها وصية قادمة من المستقبل الذي سنؤول إليه . .

وماذا كانت هذه الوصية . . إنها الوصية بأمور تبني لك موقعًا في الجنة:

(يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

فإبراهيم الآن يتحدث عن الجنة حديث من غادر الدنيا . . ويخبر أن الجنة أرضها طيبة مباركة . . ومياهها عذبة حلوة . . .

وأن الله خلق فيها مساحات مستوية لا نبات فيها، فهي قيعان، لكي يغرس المؤمن فيها أشجاره بقوله: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) . .

هذا إبراهيم الخليل الذي آل إلىٰ ربه يريد من محمد صلىٰ الله عليهما وسلم أن يخبرنا نحن بهذه المعلومة . .

إبراهيم يريد منا أن نستثمر الفرصة طالما أننا ما زلنا في هذه الدنيا فنستكثر من الغرس في الجنة قبل أن نقدم علىٰ الله!

تخيل أنك تقول الآن «سبحان الله» . . فتغرس لك شجرة في جنات عدن؟!

وتخيل أنك تدلّ صديقًا أو قريبًا علىٰ فضل «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» . . فكلما قالها هذا الصديق أو القريب، غُرِست له شجرة في الجنة، وغُرست لك مثلها، كما في صحيح مسلم **(من دل علىٰ خير فله مثل أجر فاعله)**[1].

فربما كنت نائمًا أو تتناول طعامك أو منهمكًا في عمل . . والله يغرس لك في الجنة بسبب أقوامٍ دللتهم وذكّرتهم فتفطنوا للذكر . .

وقد بوّب علىٰ هذا الحديث العظيم الإمام ابن القيم في منظومته المتلاطمة (الكافية الشافية) المشهورة بالنونية فقال **(فصلٌ**

---

(١) صحيح مسلم (١٨٩٣).

في أن الجنة قيعان، وأن غراسها الكلام الطيب والعمل الصالح)، ونظم فيها ابن القيم تحت هذا الفصل أبياتًا مستمدة من هذا الحديث فقال:

(أو ما سمعت بأنها القيعان فاغْـ

رِس ما تشاء بذا الزمان الفاني

وغراسها التسبيح، والتكبير، والتـ

حميد، والتوحيدُ للرحمنِ

تبًا لتاركِ غرْسِه ماذا الذي

قد فاته من مدة الإمكان

يا من يقر بذا ولا يسعىٰ له

بالله قل لي كيف يجتمعان؟

أرأيت لو عطلت أرضك من غرا

سٍ ما الذي تجني من البستان؟)[1]

وجعل ابن القيم هذا الحديث دليلًا لأحد فوائد الذكر .. كما يقول ابن القيم في كتابه الوابل الصيب في فوائد الذكر: **(الفائدة الثانية والثلاثون: أن الذكر غراس الجنة)[2]**.

ومن أطرف النظرات والتأملات في هذا الحديث العجيب أن

---

(١) ابن القيم، **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**، تحقيق عبد الله العمير، دار ابن خزيمة، ص(٣٩٥)

(٢) ابن القيم، **الوابل الصيب**، تحقيق عبد الرحمن قائد، نشرة مجمع الفقه، ص(١٠١).

الإمام النووي (ت٦٧٦هـ) اعتبر أنه صارت لأهل الحديث رواية متصلة السند إلىٰ النبي إبراهيم .. فإن أهل الحديث يروون هذا الحديث عن الصحابة، والصحابة يروونه عن نبينا محمد ﷺ، ومحمد يرويه عن إبراهيم الخليل!

كما يعبّر النووي عن هذه النظرة بقوله:

(وقد منّ الله الكريم علينا وجعل لنا رواية متصلة، وسببًا متعلقًا بخليله إبراهيم -عليه السلام- كما منّ علينا بذلك في حبيبه وخليله وصفيّه محمد ﷺ)[1].

ثم ساق النووي بإسناده هذا الحديث السابق مرورًا بالترمذي.

والحقيقة أن التركيز في النظر إلىٰ هذا المعطىٰ، أي كون هذه الوصية من خليل الله إبراهيم لم يكن غائبًا عن كثير من أهل العلم .. حتىٰ أن الإمام ابن رجب يقول:

(وصلت إليكم معشر الأمة رسالةٌ من أبيكم إبراهيم، مع نبيكم محمد -عليهما السلام- قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي إبراهيم فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم: أن الجنة عذبة الماء، طيبة التربة، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»)[2].

فلعلك قد لاحظت أن النووي وابن رجب سلّطا الانتباه علىٰ

---

(١) النووي، **تهذيب الأسماء واللغات**، إدارة الطباعة المنيرية، ص(١/ ١٠٠).

(٢) ابن رجب، **لطائف المعارف**، تحقيق ياسين السواس، دار ابن كثير، ص(١٢٠).

كون هذه الرسالة والوصية قادمةٌ إلينا من أبينا إبراهيم الخليل، وينقلها عنه محمد صلىٰ الله عليهما وسلم .. والمستهدف في هذه الوصية .. والمرسل إليه في هذه الرسالة هو نحن .. أيُّ اهتمام بنا بذله هذان النبيّان الكريمان علىٰ الله ..

هل تتوقع لو اجتمع اليوم اثنان من المفكرين العرب أن يكون اجتماعهم معنيًا بقضية (ذكر الله) كما اهتم بها أعظم رجلين في تاريخ البشرية في اجتماعهما في السماء السابعة؟!

لا أظن ذلك .. ويبهجني أن أكون مخطئًا.

النهضة والتقدم والتطور والرقي في ميزان الأنبياء تختلف كثيرًا عن الموازين المادية المعاصرة ..

صفاء الأنبجانية

طوال هذه السنوات المادية المكفهرة التي دهستنا، ما تزحزح عن مخيلتي إلىٰ هذه اللحظة صورة «الشايب» أبي عايض رحمه الله وهو يجر خطاه المثقلة بأعباء الكهولة .. كأنما يجر عربة الزمن وراءه .. ويشدني حين أكون وراءه .. أقهر خطوات الصبي لكي يتقدمني .. ويتلألأ علىٰ كتف فروته الصفراء المتهدلة رذاذ الليالي الشاتية .. ليشهد صلاة الفجر مع الجماعة في مسجد الحي .. يختلج رنين المطر فوق المظلات الحديدية التي قوّست ظهورها علىٰ جانبي الطريق .. بصوت تسابيحه المتهدجة ..

في مثل هذه البيئة التي تولي «صلاة الجماعة» أهمية قصوىٰ ترعرعتُ .. وذلك كان نمط الحضانة الدينية التي رضع فيها وعي الصبي معنىٰ الأولويات .. وحَبَتْ فيها طفولة التعرُّفات أولىٰ خطواتها المتعثرة ..

لم أكن أعدم في كل لحظات اليوم من يقرص أذني، بمناسبة وبلا مناسبة، تأكيدًا علىٰ صلاة الجماعة .. حتىٰ انطبع في ذهني

ما يشبه الترادف اللغوي بين الصلاة وصلاة الجماعة .. بحيث يثير ذكر أحدهما في الذهن صورة الآخر .. ففي كل الأحوال تعني مفردة «الصلاة» صورة المصطفين في المسجد فقط ..

وحين حصلت أول فرصة تلاقٍ وتعرف بكتب الفقه -أو بشكل أدق شروحات كتب أحاديث الأحكام- ورأيت براهين وجوب صلاة الجماعة أدركت كم كانت العناية الإلهية تحوط جيلًا نشأ علىٰ الأكمل ..

كل هذا لم يثر تساؤلًا .. لأن التساؤلات لا تنشأ في الفراغ .. وليست التساؤلات أثيرًا معلقًا في الهواء .. وإنما ينثال طحين التساؤلات حين ندير رحىٰ المقارنات والتقابلات ..

في تلك الأيام كان يصلي معنا في المسجد جاليات آسيوية متنوعة .. لم يكن غالبهم بنفس حفاوة أهل الحي بصلاة الجماعة .. لكنهم كانوا يختلفون عنا بقسمات أخرىٰ أضرمت تساؤلاتي ..

بكل صدق ومباشرة: لقد كانوا أكثر منا سكونًا في صلاتهم وأكثر إجلالًا لهيئات الصلاة ..

وما أكثر ما فكّرت في هذه المقارنة ..

وفي تلك الأيام .. في أجواء الأميّة الفقهية .. نشط العلماء والدعاة في إثارة الاهتمام بموضوع «أهمية طلب العلم الشرعي» .. وتنافس فتيان كان همهم ركز الطوب مرمىٰ كرة في الشوارع الفسيحة إلىٰ ابتدار السواري يدونون الفوائد تحت الأشياخ .. وما

أزال أتذكر والدي وأعمامي وهم في مجلس المنزل وكنت صغيرًا أدير القهوة بينهم ويقرع سمعي تعجبهم من الشباب الجدد اللذين نزلوا من المدرجات بينما صعدت ثيابهم إلىٰ أنصاف الساقين . .

في مسجد آخر قريب كان أحد علماء الحديث يشرح سنن الترمذي . . وكان إذا سئل فاندلق يتلاطم بالأسانيد ودقائق العلل تطامنت أمامه مفارق الأقران حتىٰ يظن الظان أنها مسألة هو حديث عهد بحفظها . . وما كان شيخنا حديث عهد بها ولكنها كمائن النفوس تتطلب المغامز لتضمد جراحها النرجسية وتقلص الفارق بينها وبين تميز الآخرين . . فاستحوذ علي هذا الشيخ وغشيت جلالته بصري . . وخرجت من مكتبة المؤيد مقتنيًا سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر باتجاه مسجده . . وانخرطت في طقوس هذا الدرس . . تتجاوب جنبات المسجد بذكر بندار وقتيبة بن سعيد ومحمود بن غيلان وأحمد بن منيع ونحوهم من أشياخ الترمذي الذين أكثر عنهم في جامعه . . ولأسماء رجال الحديث إذا استرسلتْ كُناهم وألقابهم مفصولة بـ«حدثنا وأخبرنا» حلاوة في الأسماع يعرفها أهل الشأن . . والشيخ يقول عبارته التي اعتدناها «هذا الرجل مر معنا مرارًا وتكرارًا» . . وحديث فلان ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام . . ولشيخنا ولعٌ بالتقاسيم في أحوال الرواة . . وهكذا حتىٰ نصل لجملته المألوفة في خاتمة كل درس «لعلنا نتوقف عند هنا» . .

وقبل بداية كل درس كان الشيخ يصلي النافلة البعدية ركعتين

في مؤخرة المسجد .. فكنت أدع كل ما بيدي ويشخص بصري أتأمل صلاته .. وقد شهدت شيئًا ما عهدته من قبل .. في سكون يديه وهما يرتفعان للتكبير .. وسكونه في انتقالات الصلاة .. وإطالته الركوع الذي يقصره الناس ..

كنت أنظر له وليس بين لحيته المطأطئة ويده المقبوضة علىٰ صدره إلا صوت تراتيل قرآن يهمس به .. ومن أعجب مشاهد المصلين الخاشعين ما يغزو النفوس من الشعور بالهالة الإيمانية التي تطوقهم .. حتىٰ يعتري الخجل من بجانبهم من الحديث ورفع الصوت .. كأنما ينشر الخشوع في المكان رسالة استنصات ..

تضخمت المقارنات في داخلي .. وعاد السؤال مجددًا .. هل ما أرىٰ من حولي في مجتمعي القريب هو الوضع الطبيعي؟ هل كثرة الحركة في الصلاة والانتقالات بلا سكينة التي اعتدت رؤيتها في كثير من المصلين من حولي حتىٰ انطبعت بها لا شعوريًا هي الصورة المألوفة؟ هل نحن في الطريق الخاطئ ونحن لم نستشعر أصلًا أن ثمة قصور؟

بعض المصلين يسحب شماغه إلىٰ اليمين ليعتدل المرزام، ثم يشعر أنه غير متوازن فيسحبه لليسار مرةً أخرىٰ .. ومصلٍّ آخر يزيح كمّه عن ساعته اليدوية في معصمه ويعيد ضبط عقاربها علىٰ ساعة الحائط التي أمامه ويراوح النظر بين الساعتين حتىٰ تتطابق العقارب .. وآخر إذا سجد تلعب أصابعه علىٰ الموكيت يرسم دوائر ويمحوها .. ومصلٍ بجانبك يتحول إلىٰ حديقة غنّاء تصفر عصافير

فمه يصون بلسانه بقايا الطعام ويستمتع بالأصوات التي يسحبها بين فجوات أسنانه . .

أما الانتقالات بين أركان الصلاة فكثير من الناس يهجم بحركات شعثاء . . لا يداري النزول والقيام بسكينة وإخبات . .

هذه المظاهر مجرد أمثلة من جملة مظاهر كثيرة صرت أدقق فيها بعد أن لم أكن كذلك . . بل لقد كنت أراها مظاهر طبيعية وليست موضع تدقيق واستشكال أصلًا . . بل وبكل شفافية مع القارئ لقد اكتسبت -للأسف- كثيرًا من هذه التصرفات وانطبعت في سلوكي، ثم جاهدت نفسي لاحقًا علىٰ قطع كثيرٍ منها، وما زلت أكابد كشط نتوءات العادات . . وعجزت عن قطعها البتّة . .

ومع هذه الرياح العلمية التي هبّت علينا صعد نجم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بصورة مجتمعية غير مسبوقة . . حتىٰ صار فتيان الدعوة تلهج ألسنتهم بقولهم اختار ابن تيمية كذا، وقال ابن القيم في الجواب الكافي كذا، ولعل ذلك بعض مما صدّق الله به حدس الشيخ شهاب الدين ابن مُرِّي . . فقد كان رحمه الله متأثرًا ببعض خلل المتصوفة . . ثم انفتح له باب الحق بعد اقترابه من ابن تيمية . . فشغف بشيخ الإسلام . . وصار في مدينة القاهرة يصدع بالحق في مسائل الاستغاثة والتوسل والزيارة . . فابتلي كشيخه وسُجِن وجُلِد ثم نُفِي من مصر إلىٰ الشام . . ولما مات شيخه ابن تيمية معتقلًا في القلعة أرسل التلميذ الموجوع بفقد شيخه يوصي بقية إخوانه وزملائه بالاهتمام بكتب شيخهم ابن

تيمية ونسخها وأطلق قَسَمَه التاريخي وقال **(فلا تيأسوا من قبول القلوب القريبة والبعيدة لكلام شيخنا . . ، ووالله إن شاء الله ليقيمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه، واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه، رجالا هم إلىٰ الآن في أصلاب آبائهم)**[1].

ومن رأىٰ تسلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب بذخيرة ابن تيمية في حرب الشركيات والبدع حتىٰ صنع مفصلًا تاريخيًا في مسيرة الأمة، ثم إيقاظ الله لابن قاسم سائحًا في الأرض يلملم فتاوىٰ الشيخ من قماطر المكتبات، متزامنًا مع انبعاث اليقظة العلمية السلفية الحديثة، ثم تزاحم الرسائل الأكاديمية والبحوث العلمية تستقي من علم الشيخ، من رأىٰ ذلك كله عظمت ثقته بأن الله أكرم ابن مُرِّي وأوقع له مآل قسمه.

والمراد أن من عادة المحب للعلم أن تتوق نفسه لمعرفة ترجمة وسيرة الرموز المركزيين في أي بيئة معرفية . . ولذلك تتبعت كل ما وقع بيدي من تراجم لشيخ الإسلام ابن تيمية، التراجم المفردة والضمنية، وما وجدت إلىٰ هذه الساعة أعذب من ترجمة البزار لشيخه ابن تيمية . . ففيها وقائع وشهادات حية رواها البزار كأنك تجلس مع الشيخ . . وكم طالعت هذه الترجمة في السنة عدة مرات . . وما رويت منها بعد . .

---

(١) ابن مري، **قطعة من مكتوب الشيخ الزاهد شهاب الدين بن مري**، تحقيق محمد الشيباني، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٩هـ، ص(١٨).

في أحد تلك المشاهد كان الشيخ البزار يصوّر صلاة ابن تيمية .. وحين تحدّث عن طريقة تكبيره رسمها بعبارة تنقطع لها الأنفاس .. يقول البزار عن شيخه ابن تيمية:

(وكان إذا أحرم بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتىٰ يميد يمنة ويسرة)[1].

لا أستطيع أن أتذكر كم مرةً وقفت أمام هذا النص وأخذت أتخيل هذه «التكبيرة» التي تنحني لها قلوب المؤمنين مما فيها من الخشوع والسكينة .. ولا أحصي كم مرةً طلبت التعليق في مجلس من المجالس وأخذت أحكي مشاعري وأنا أقرأ هذا النص للبزار عن «تكبيرة» ابن تيمية ..

وعاد هذا المشهد من صلاة ابن تيمية يقلب في ذهني دفتر الذكريات ويفتح صفحة تلك الإشكالية التي كنت أفكر فيها .. وهي التساؤل عن مدىٰ صحة ما أراه في نفسي وفي كثير من المصلين من حولي من اعتياد كثرة الحركة في الصلاة، والوقوف المتصدع فيه، والانتقالات المشتتة بين الأركان ..

وكان للذهبي تراجم كثيرة لابن تيمية متناثرة في كتبه، ولكن دوّن الذهبي ترجمة موسّعة لابن تيمية، لم نكن نجدها بين أيدينا في كتبه، وإنما نرىٰ المؤرخين في عصر الذهبي وبعده ينقلون عنها، ثم

---

(١) البزار، **الأعلام العلية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ص(٣٧).

طُبعت هذه الرسالة عام ١٤٢٥هـ، ووجدت فيها نصًا للذهبي يتحدث فيه عن ابن تيمية إذا صلىٰ بالناس إمامًا، يقول فيها الذهبي: (**ويصلي بالناس صلاة لا يكون أطول من ركوعها وسجودها**)(١).

وأما ابن القيم فأظن أجمع من كتب عن تفاصيل طلبه للعلم القاضي صلاح الدين الصفدي، ولكن قرينه الحافظ ابن كثير له في وصف أحوال ابن القيم عبارات مبهرة، فبالله عليك تذكر ذلك العصر وما فيه من العلماء والعبّاد والمتنسكين والمجاهدين، ثم طالع قول ابن كثير عن ابن القيم:

(وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف من أهل العلم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع، ولا ينزع عن ذلك، رحمه الله)(٢).

حين قرأت هذا النص لأول مرة رحت أقارنه جذلًا بكلام ابن القيم نفسه وهو يشرح أحاسيس المصلي الخاشع في رسالته المشهورة «الصلاة وحكم تاركها»، كان ابن القيم يسترسل في تصوير كيف يعيش المصلي كل هيئة وذكر من أذكار الصلاة لحظة

---

(١) الذهبي، ترجمة ابن تيمية، منشور ضمن: من تراث ابن تيمية، تحقيق حسين عكاشة، دار الفاروق، ص(٢٤٤).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق د.عبد الله التركي، دار هجر، ص(١٨/ ٥٢٣).

لحظة، حيث يقول ابن القيم:

(فإنه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرب شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال «الله أكبر» شاهد كبرياءه، وإذا قال «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالىٰ جدك ولا إله غيرك» شاهد بقلبه ربًا منزهًا عن كل عيب، محمودًا بكل حمد، وإذا قال «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقد آوىٰ إلىٰ ركنه الشديد واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه، فإذا قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله «حمدني عبدي»، فإذا قال . . .)[(١)].

وهكذا استمر ابن القيم في استعراض كل هيئة من هيئات من الصلاة، وكل ذكر من أذكارها، منذ القيام وتكبيرة الإحرام إلىٰ التسليم، يشرح كيف يعيش المصلي معناه بقلبه وروحه، واستغرق هذا زهاء عشر صفحات، ثم ختم ذلك بقوله:

(فالصلاة وضعت علىٰ هذا النحو، وهذا الترتيب، لا يمكن أن يحصل ما ذكرناه من مقاصدها التي هي جزء يسير من قدرها وحقيقتها، إلا مع الإكمال والإتمام والتمهل الذي كان رسول الله ﷺ يفعله)[(٢)].

وأنا أقرأ هذا الموضع الذي هو من عيون نصوص ابن القيم،

---

(١) ابن القيم، **الصلاة وحكم تاركها**، تحقيق المنشاوي، مكتبة الإيمان، ص(١١١).

(٢) المصدر السابق، ص(١٢٢).

رأيت فعلًا كيف تتحول هيئات الصلاة من حركة جسدية إلىٰ هالة عبودية .. وكيف تتحول أذكار الصلاة من ألفاظ لغوية إلىٰ معانٍ تنتشل المصلي للملكوت الأعلىٰ ..

ولكن لماذا كنت أقرأ كلام ابن كثير عن وصف صلاة ابن القيم حين قال عنه «**له طريقة في الصلاة يطيلها جدا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع، ولا ينزع عن ذلك**» ثم أقارن ذلك بوصف ابن القيم لكيف يعيش المصلي الصلاة؟

هل كنت تلك الأيام في غرارة الشباب أتوهم اكتشاف سر ما استغربه ابن كثير وعُذّال ابن القيم؟ وأن هذا الرجل الذي لاموه في طول صلاته ما علموا أنه شرح في موضع آخر كيف يحيا المصلي الصلاة؟

أم كنت يا ترىٰ أوقف نفسي علىٰ الفارق بيننا وبين أئمة العلم والإيمان .. هذا ابن القيم الذي كرّس عشر صفحات لشرح كيف يعيش المصلي هيئات وأذكار الصلاة .. كرس مقابلها ستين سنة من عمره يشرح عمليًا كيف يصلي المصلي ..

إيهٍ يا ابن القيم .. أنت تعظنا بربع العشر من عملك .. ونحن نعظ الناس بقروض وديون .. فرصيد عملنا دون نفقات مواعظنا بكثير .. ولذلك يبارك الله في الزكاة .. ولا يصلي رسول الله علىٰ المدين ..

هذه المقارنات، وخصوصًا وصف البزار لصلاة ابن تيمية،

ووصف ابن كثير لصلاة ابن القيم، قادتني للاهتمام بالموضوع وتتبعه في مظانّه من كتب السلوك وكتب التراجم، فلفت انتباهي أن أهل العلم إذا طرقوا هذا الموضوع اهتمّوا بذكر صلاة «ابن الزبير»، ولم أكن في البداية مستوعبًا خلفيات هذه العناية، فينقلون من أخبار صلاة ابن الزبير مشاهدات علماء جيله له، ومن نماذج ذلك:

قال التابعي الجليل المحدِّث زاهد البصرة أبو محمد ثابت البناني (ت١٢٣هـ) (**كنت أمر بابن الزبير، وهو يصلي خلف المقام، كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك**)[1].

وقال التابعي الجليل إمام التفسير مجاهد بن جبر: (**كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عودٌ، من الخشوع**)[2].

وفي رصدٍ آخر له يقول مجاهد نفسه يصف شدة سكون ابن الزبير في الصلاة: (**كان ابن الزبير أحسن الناس صلاة، كأنه خرقة**)[3].

وقال التابعي الجليل مفتي المناسك عطاء ابن أبي رباح: (**كان ابن الزبير إذا صلىٰ كأنه كعب راتب**)[4]، أي منتصب ثابت.

وأبو مهَل عروة بن قشير، من صغار التابعين وثّقه أبو زرعة وغيره، كان يصلي خلف ابن الزبير مأمومًا، ويرصد صلاته،

---

(١) البغوي، معجم الصحابة، تحقيق محمد الأمين الجكني، مكتبة دار البيان، ص(٣/ ٥١٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة، حديث رقم (٧٣٢٢).

(٣) الفاكهي، أخبار مكة، تحقيق ابن دهيش، دار خضر، ص(٢/ ٣١٨).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٣٣٠٤).

فيقول: **(كان ابن الزبير يؤمنا عند المقام، فإذا فرغ من المكتوبة صلىٰ تحت الميزاب، قائمًا ما يحرك منه شيء)**[١].

وحين حاصر الحجاج بن يوسف مكة ونصب المنجنيق علىٰ جبل أبي قبيس عام (٧٢هـ) وأخذ يرمي ابن الزبير وكتيبته بالحجارة والنفاطات، فكسر وأحرق، ومع ذلك كله فقد كان ابن الزبير يصف قدميه خلف المقام يصلي، فإذا دخل في صلاته ذهل عما حوله، وقد كان هذا مشهدًا لفت التابعين الآخذين عن ابن الزبير، ومن ذلك ما ذكره التابعي الجهبذ العابد الذي كان يسمىٰ سيد القراء وهو محمد بن المنكدر، حيث يقول: **(لو رأيت ابن الزبير وهو يصلي لقلت غصن شجرة يصفقها الريح، وإن المنجنيق ليقع ههنا وههنا ما يبالي)**[٢].

هذه بعض الأخبار التي تناقلها علماء السلوك ومدونوا التراجم عن صلاة ابن الزبير، ودهشة أئمة التابعين منها، وبكل صراحة فإنني حين قرأت هذه الأخبار لأول مرة ورأيت عناية أهل العلم بذكر صلاة ابن الزبير واستثنائية سكونه وإخباته فيها تعاملت مع الأمر علىٰ بداهته الأولية الظاهرة، فكنت أظن هذه الأخبار مجرد مشاهدات مسجلة عن شخصية ابن الزبير استدعاها الانبهار بصلاته، كآحاد الآخبار وأعيان الوقائع، ولم ينكشف لي أي خيوط اتصال تربط هذه الأخبار باعتبار أشمل . .

---

(١) ابن سعد، **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق د. علي عمر، مكتبة الخانجي، ص(٦/ ٤٨٢).

(٢) أبو نعيم، **حلية الأولياء**، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(١/ ٤٠٦).

ثم اتضح لي أن أئمة التابعين وأتباعهم في ذاك العصر المشرق كانوا يرون صلاة ابن الزبير جوهرة في قلادة أشمل .. وأنهم ينقلونها لا باعتبارها قصة منفردة، بل باعتبارها مشهدًا متصلًا بحلقات قبله وبعده ..

صحيح أنه اشتهر أن الأسانيد رواحل تحمل الأحاديث والأقوال الشريفة .. ولكن ليس هذا كل شيء .. فالمشهد العملي نفسه يقتبسه لاحق عن سابق .. ويُنقل المشهد العملي نفسه بكل صمته وهالته بالأسانيد أيضًا .. كم كنت مأخوذًا بالعجب حين اكتشفت أن صلاة ابن الزبير هي أحد اللحظات في مسلسل الإخبات والخشوع .. وقد جلّىٰ أهل العلم ذلك، فقد قال الإمام أحمد في مسنده:

(حدثنا عبد الرزاق قال: أهل مكة يقولون: «أخذ ابن جريج الصلاة من عطاء، وأخذها عطاء من ابن الزبير، وأخذها ابن الزبير من أبي بكر، وأخذها أبو بكر من النبي ﷺ». قال عبد الرزاق: ما رأيت أحدًا أحسن صلاة من ابن جريج)[1].

لا أدري أي جماليات هذا الإسناد تستحق أن يُستفتح بها؟!

وكم بقيت أفكر كيف يا ترىٰ تجسّد هذا الإسناد في الواقع؟

إنهم لا يروون عن بعضهم حديثًا قوليًا .. ولا يحكون عن بعضهم صفة فعلية معينة .. إنه سلوك يستنشقه التلميذ من محراب

---

(١) مسند الإمام أحمد (٧٣).

معلمه بصمت .. ويورثه لتلميذه بنظير هذا الصمت .. لم ينطق راوٍ عمن فوقه بكلمة .. ولكنه يتزكىٰ بمن فوقه .. ليزكّي من دونه .. فتبدأ مصابيح الإخبات من رسول الله صلىٰ الله ﷺ، مرورًا بأبي بكر الذي يتذكر القارئ حديث البخاري عنه حين ضايقته قريش فهمّ بالهجرة للحبشة، فلقيه ابن الدغنة أحد سادات العرب، فقال:

(أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرُج ولا يُخرَج، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنىٰ مسجدًا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاء، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن)[1].

فصلاة أبي بكر .. مجرد مشهده وهو يصلي ويرتل آيات القرآن بفناء داره شكّل ظاهرة تأثير دعوية قلبت عوائل قريش رأسًا

---

(١) البخاري (٢٢٩٨).

علىٰ عقب .. حتىٰ صاروا يتسللون يشاهدونه مبهورين ..

وفي صحيح البخاري إشارة إلىٰ شدة إقبال أبي بكر علىٰ صلاته وسكونه فيها **(وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته)**[1]

والذي تلقىٰ روحانية الصلاة وسكينتها من أبي بكر هو ابن الزبير الذي مرت أخباره، وأشاروا في نصوصهم لذلك كما في خبر مجاهد السابق **(كان ابن الزبير رضي الله عنه إذا قام في الصلاة كأنه عود، وحدث أن أبا بكر كان كذلك، قال: وكان يقال: ذاك الخشوع في الصلاة)**[2]، وقال ابن حجر في الفتح «سنده صحيح»، فهذا يكشف أن هذا السكون الشديد في الصلاة حتىٰ كأنه وتد أو عود، أنه تلقّاه ابن الزبير من أبي بكر ..

وأما عطاء ابن أبي رباح الذي أخذ هذه الحياة السلوكية في الصلاة من ابن الزبير، وابن جريج الذي أخذها من عطاء، فلهما سويًا أخبار تدل علىٰ عجائب صلاتيهما وكيف تأثر التلميذ منهما بشيخه، إذ يقول ابن جريج:

(كان عطاء بعد ما كبر وضعف يقوم إلىٰ الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة وهو قائم، لا يزول منه شيء ولا يتحرك)[3].

يا خيبة أيامي .. ويا حسرةً تقضمني الآن وأنا أقرأ هذا الخبر

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٤).

(٢) السنن الكبرىٰ للبيهقي (٣٥٢٢).

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(٣/ ٨٠).

.. هذا الرجل بعدما كبر سنه ورقّ عظمه يصلي بالمئتين من سورة البقرة في ركعة واحدة .. والمئتان من سورة البقرة تبلغ ثلاثين وجهًا من القرآن .. أيْ جزء ونصف بالضبط في ركعة .. وهو ساكن مخبت لا يتحرك .. وهذا بعدما طعن في السن! فكيف كان عطاء يا ترىٰ يصلي أيام فتوته وشبابه؟!

ولفت انتباهي في هذا الخبر تنبيه ابن جريج علىٰ سكون عطاء في صلاته «وهو قائم، لا يزول منه شيء، ولا يتحرك» وهذه الحال هي المروية عن شيخه ابن الزبير عن أبي بكر.

وهكذا كانت صلاة ابن جريج نفسه، فانتقل هذا الخشوع والإطراق إليه، وقد وصفه تلميذه الإمام الحافظ عبد الرزاق فقال:

(ما رأيت أحسن صلاة من ابن جريج، كان يصلي ونحن خارجون، فيُرىٰ كأنه اسطوانة، وما يلتفت يمينًا ولا شمالًا)[1].

يا الله .. إنه ذات التشبيه الذي يصوّر السكون والإخبات في صلاة شيوخه في سلسلة الخشوع ..

وقد أثّر فيّ كثيرًا تعليق قصير جدًا كأنما هو دمعة لا عبارة .. سحّها ابن جريج رحمه الله لما تعجّب بعضهم من صلاته فالتفت بتعقيب قصير كأنما نكأ فيه جرح الذكريات عن شيخه عطاء بن أبي رباح .. النموذج الذي تلقىٰ عنه الصلاة .. حيث يقول

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٢٨٨٤).

ابن عيينة: (**قلت لابن جريج: ما رأيت مصليًا مثلك، فقال: لو رأيت عطاء؟!**)[1].

لا أدري لماذا شعرت أنني فهمت من كلمة ابن جريج «لو رأيت عطاء؟!» أبعد مما يجب أن تعنيه .. حين كنت أقرأ هذه العبارة لم أستطع أن أدفع عن نفسي إحساسًا غامرًا أن ابن جريج كان يزفر وهو يقولها .. «لو رأيت عطاء» ..

ومصدر هذا الشعور الذي كان يغلب علي وأنا أقرأ عبارة الإمام ابن جريج إنما هو نمط العلاقة بينهما، فإن ابن جريج تأخر طلبه العلم كما ذُكِر في ترجمته[2]، وذكروا أن سبب ذلك هو ما قاله عن نفسه: (**كنت أتتبع الاشعار الغريبة والأنساب، فقيل لي: لو لزمت عطاء؟ فلزمته ثماني عشرة سنة، أو تسع عشرة سنة إلا أشهرًا**)[3]، وبسبب هذا الانكباب علىٰ شيخه عطاء ابن أبي رباح، قال ابن المديني: (**ما كان في الأرض أحد أعلم بعطاء من ابن جريج**)، فهذه العلاقة العلمية العبادية التي جاءت بعد ظمأ يستحيل أن تكون علاقة فاترة الوجدان .. ولذلك كنت أشعر أن ابن عيينة لما قال لابن جريج: (**ما رأيت مصليًا مثلك**) فرد ابن جريج بتعقيبه

---

(١) أبو نعيم، **حلية الأولياء**، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(٣/ ٨١).

(٢) الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، ص(١/ ١٦٣).

(٣) ابن أبي حاتم، **الجرح والتعديل**، نشرة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ص(٥/ ٣٥٦).
وفي العبر للذهبي «الأشعار والعربية»، وفي غيرهما «الأشعار العربية»، ويظهر في النسخ تصحيف، وتبدو الثالثة بعيدة جدًا، وأظن عبارة العبر أصح الثلاثة، والله أعلم.

القصير: (لو رأيت عطاء؟!) كنت أشعر أن جواب ابن جريج هذا يخفق بحنين الذكرىٰ لشيخه وعبادته وذكرىٰ حسن صلاته وطولها وسكونها وتؤدته فيها ..

هذا الإسناد السلوكي الذي يتناقل سكون الصلاة منذ ابن جريج إلىٰ أبي بكر متلقىٰ عن رسول الله ﷺ.. وشواهد السكون والخشوع والإطراق في صلاة رسول الله ﷺكثيرة جدًا .. بل كل صفات صلاته لوحة باتجاه الخشوع والإخبات لله .. وسنتناول هاهنا أحد هذه المشاهد من صلاة رسول الله ﷺ .. وهو مشهد «الأنبجانية» ..

فقد كان من رجالات قريش «أبو جهم بن حذيفة» وهو من بني عدي، شيخ نسّابة معمر، وقد تأخر إسلامه إلىٰ يوم الفتح، وأهدىٰ للنبي ﷺ «خميصة»، والخميصة كساء من لبس الأشراف في أرض العرب، ويكون فيها أعلام، وهي الخطوط التي تكون في طرفي اللباس، وتكون غالبًا بلون مغاير، فهي زي راقٍ يناسب أن يكون هدية، فلما لبسه النبي ﷺ وكبّر للصلاة نظر في الأعلام التي علىٰ طرفي الكساء، فلما سلّم ﷺ، جاء متضايقًا لأهله وطلب منهم أن يعيدوا «الخميصة» إلىٰ أبي جهم، ويطلبوا من أبي جهم كساءً آخر تطييبًا لقلب أبي جهم حتىٰ لا يقع في قلبه شيء من رد هديته، والكساء الآخر هو «الأنبجانية» وهو كساء ليس فيه أعلام وهو أقل من الخميصة ثمنًا وقيمة عند العرب .. كما روىٰ هذه القصة البخاري عن عائشة:

(أن النبي ﷺ صلىٰ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذهبوا بخميصتي هذه إلىٰ أبي جهم، وأتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي». وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قال النبي ﷺ: «كنت أنظر إلىٰ علمها وأنا في الصلاة، فأخاف أن تفتنني»)[1].

وفي رواية في مسند الإمام أحمد أنهم راجعوا النبي ﷺ في هذا الطلب لعله يعدل عنه: **(فقالوا: يا رسول الله، إن الخميصة هي خير من الأنبجانية، قال: فقال: «إني كنت أنظر إلىٰ علمها في الصلاة»)**[2].

فانظر كمال اهتمام النبي ﷺ بصفاء باله وفراغ ذهنه أثناء الصلاة .. حتىٰ أنه نظر مجرد «نظرة» إلىٰ خطوط الزينة في ثوبه فأخرج الكساء عن ملكه .. ورده لصاحبه .. فماذا يقول أقوام لم يعرض لقلوبهم نظرة في لباس .. بل منذ تكبيرة الإحرام تنطلق قلوبهم في رحلة سياحية في أودية الدنيا كلها ..

وهذه القصة عن خميصة أبي جهم وأعلامها تشبه القصة الأخرىٰ في البخاري نفسه، عن قرام عائشة، والقرام هو ضرب من النسيج فيه نقوش ويتخذ ستارة في البيوت، وفي البخاري عن أنس: **(كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال النبي ﷺ**

---

(١) صحيح البخاري (٣٧٣)، صحيح مسلم (٥٥٦).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٤١٩٠).

«أميطي عنا قرامك هذا، فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي»)[1].

حياتهم كلها .. من الأزياء .. وأثاث المنزل .. يتحكم فيها مطلب الخشوع ..

حين كنت أطالع سلسلة الخشوع والإخبات والسكون هذه من ابن جريج إلىٰ رسول الله ﷺ؛ انساق التفكير إلىٰ حساب المسافة بين صلاتنا وصلاتهم .. لطالما رأيت في نفسي وفي كثير من إخواني من حولي حركات في الصلاة تناسب تمطي المرء علىٰ أريكة استرخاء، لا حال قيامٍ بين يدي من له مقاليد السموات والأرض ..

كم فينا من مصلٍ يتسلىٰ بقنص شوارد شاربه بأسنانه ثم يسلّها منها .. وشابٌ يشمخ رأسه ثم يهزه لتتطاير خصلات لمّته إلىٰ الوراء .. وآخر يفحص زوائد الأظفار في الصلاة فإما كسر الزائد بإصبعه أو لقمه أسنانه لتقرض ما زاد .. وفينا من يطوف بيده علىٰ كرشه كالمتفقد لتحولات حجمها واستدارتها ويوهم نفسه أنها صغُرت ..

بل إذا شئت أن تتأكد أننا ننشغل في صلاتنا أكثر مما ننشغل في مجالسنا فتأمل كيف تجد المرء يجلس في عمل أو مناسبة ثم إذا صلىٰ تفطن لبقعة خفية في ثوبه لم يتفطن لها أثناء جلوسه في تلك

---

(١) صحيح البخاري (٣٧٤).

المناسبة . . عيوننا الغافلة في الصلاة ليست في موضع السجود بل هي تطوف في ملابسنا وما حولنا تبحث عن لهو . .

وكم فينا من ينظر لساعة الحائط في المسجد مرارًا ثم يعيد حساب الوقت المتبقي بين انقضاء الصلاة ووصوله لمشواره الذي يخطط له . . كل هذا الانشغال والحركة بين يدي من ذلّت لكبريائه السموات والأرض . .

بل كم فينا من يحسب المتبقي من الراتب بالقياس إلىٰ المتبقي من نهاية الشهر بشيء من القلق وهو بين يدي الرزاق سبحانه الذي هو أغنىٰ وأقنىٰ . .

وكم فينا من يبدأ التكبير وقد فسر كمه عن ذراعه من آثار الوضوء . . ثم يستكمل ترتيب كمه أثناء الصلاة لا قبلها . . وفينا من يشعر أنه بحاجة كل هنيهة أن يجول بيده علىٰ جنبيه يتحسس محفظته ومفاتيحه وأغراضه الشخصية التي يرجح بها جيبه . .

بل فينا من يستخرج جواله من جيبه كالمظهر إصماته وهو يسترق النظر هل من رسائل جديدة؟ أو ليختلس اسم المتصل عسىٰ أن لا يكون من يترقب اتصاله . . يظهر لمن بجانبه الخشوع ويغفل عن نظر الله . . ألا نخشىٰ أن يدخل هذا تحت قول الله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقول الله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾، وقول الله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ . .

كنت أقارن هذه المشاهد الاجتماعية التي أراها في نفسي

وفي كثير من إخواني من حولي بما طالعته في سلسلة الخشوع منذ ابن جريج وانتهاء برسول الله ﷺ .. تمر أمام ناظري تلك الأوصاف: كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك ..كأنه عود .. كأنه خرقة .. كأنه اسطوانة .. وأشعر بالخجل يكسر عيني .. بل كنت أقول في نفسي لو رآنا هؤلاء فكيف سيصفون صلاتنا؟ ما التشبيه الذي سيطرأ علىٰ أذهانهم ليشبهونا به؟

وإذا تحدّث أهل العلم عن السكون والتمهل والتؤدة في الصلاة يذكرون قول الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] وقول الله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ونحوها من النصوص ..

ولكن ما معنىٰ «الخشوع» في هذه الآيات؟ الحقيقة أنك تجد كثيرًا من أهل العلم في كتب التفسير والسلوك حين يقصدون لتفسير كلمة «الخشوع» في مثل هذه الآيات القرآنية يذهبون للغة العرب يفتّشون فيها عن معنىٰ «الخشوع»، وهذا إجراء علمي معتبر وتقليد مألوف.

ولكن للبحر أبي العباس ابن تيمية طريقة أخرىٰ تفرّد بكمية وكثافة حضورها في تفسيره لألفاظ النصوص، يمكن تسميتها «مبدأ الاكتفاء النصي الذاتي» .. وخلاصة هذا المبدأ أن ابن تيمية يرىٰ أن معرفة معنىٰ الألفاظ في النصوص الشرعية لا يفتقر إلىٰ الرجوع لغريب اللغة والشعر ومعاجم متن اللغة ونحوها، بل النصوص

والآثار نفسها تتضمن تفسيرها بنفسها، ويحتج بأن النص الإلهي يبيّن ذاته بذاته.

والمبدأ المعرفي الذي بنىٰ عليه ابن تيمية ذلك هو كما يكرر: «أن النبي بلغ ألفاظ القرآن ومعانيه، لا ألفاظه فقط»[1]، ويجادل ابن تيمية في الثبوت والدلالة كليهما، فيقول في الثبوت: **(اللغة المستفادة من الشعر والغريب الذي يعلمه الآحاد دون ما يستفاد من نقل أهل الحديث . .)**[2] ويقول في الدلالة: **(ثم لو ثبت النقل عن العربي الشاعر أو الناثر، وعلم أنه أراد معنىٰ بذلك اللفظ، لكان ذلك لغة له قد أرادها باللفظ، فلم يكن إثبات اللغة بمجرد هذا الاستعمال أولىٰ من إثباتها بالاستعمال المنقول في الحديث والآثار)**[3]، بل إنه صعد بهذا المبدأ درجة أعلىٰ وقال **(لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن . . ، والعلم بمعاني القرآن ليس موقوفا علىٰ شيء من ذلك؛ بل الصحابة بلغوا معاني القرآن كما بلغوا لفظه)**[4].

وقد عارض ابنَ تيمية في هذا المبدأ وناقشه بعضُ علماء اللغة الذين عاصروه ومنهم العملاق أبو حيان الأندلسي في خطبة

---

(١) انظر: ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(١٣/ ٤٠٢).

(٢) ابن تيمية، **جواب الاعتراضات المصرية**، تحقيق محمد عزير شمس، نشرة مجمع الفقه، ص(١٠).

(٣) المصدر السابق، ذات الصفحة.

(٤) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٧/ ١٢٤).

تفسيره[١]، وللمسألة ذيول وقيود ونكات شيّقة ليس هذا الموضع المناسب لعرضها.

علىٰ أية حال .. طبقًا لهذا المبدأ، أعني تفسير النص بالنص، أو التفسير الذاتي للنصوص، أو مبدأ الاكتفاء النصي الذاتي: كيف فسّر ابن تيمية معنىٰ «الخشوع» الوارد في الآيات السابقة؟

أي أنه إذا كنا لن نذهب أولًا للنصوص العربية القديمة المنقولة من شعر ونثر نبحث فيها عن معنىٰ «الخشوع» وإنما سنبحث في النصوص الشرعية ذاتها عن معنىٰ «الخشوع»، فما هو معنىٰ «الخشوع» إذن؟ وكيف نصل لهذا التفسير؟

طبّق ابن تيمية مبدأه هاهنا بطريقة استنباطية مركبة من عنصرين، عنصر «الوجوه والنظائر» المعروفة، أي تتبع موارد اللفظ في النص نفسه اشتراكًا وتواطؤًا، وعنصر «التعريف بالمقابلة»، فلما جاء لقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قارنها بالآية الأخرىٰ التي قال الله فيها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

لكن يا ترىٰ أين وجه الدلالة في الآية الأخرىٰ علىٰ معنىٰ «الخشوع»؟ ما علاقة «خشوع الأرض» المذكور في الآية الأخرىٰ بـ«خشوع الصلاة» المذكور في الآية الأولىٰ محل التفسير؟

---

(١) أبو حيان، **البحر المحيط**، تحقيق عادل عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ص(١/ ١٠٤).

حسنًا .. تأمل كيف استنبط ابن تيمية من الآية الأخرىٰ معنىٰ «الخشوع»، يقول أبو العباس عليه شآبيب الرحمة في رسالته المشهورة القواعد النوارنية:

(فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعا ..، وقال تعالىٰ «ومن آياته أنك ترىٰ الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت»، فأخبر أنها بعد الخشوع «تهتز» والاهتزاز حركة، وأنها «تربو» والربو الارتفاع، فعُلِم أن الخشوع فيه: سكون وانخفاض)[1].

فابن تيمية هاهنا يقول دام أن الآية ذكرت خشوع الأرض، ثم ذكرت الآية الحال التي تخالف هذا الخشوع وهما الوصفان: الاهتزاز والربو، والاهتزاز هو الحركة، والربو هو الارتفاع، أدركنا أن الخشوع سيكون بضد ذلك، فيكون الخشوع يتضمن الوصفين المضادين وهما: السكون وعدم الحركة، والانخفاض وعدم الرفع.

وواصل ابن تيمية وذكر خمسة نصوص أخرىٰ استنبط منها أيضًا معنىٰ «الخشوع»، دون الافتقار لمعاجم اللغة علىٰ طريقته المعروفة في التفسير.

لكني أريد أن أسألك: بالله عليك ألم تجد حلاوة في حلقك وأنت تقرأ استنباطه معنىٰ آية خشوع الصلاة من آية خشوع الأرض؟

---

(١) ابن تيمية، **القواعد النورانية**، تحقيق د.أحمد الخليل، دار ابن الجوزي، ص(٧٤).

وأحب التنويه أن منبع التفرد التيمي هاهنا ليس في أصل اعتبار مبدأ التفسير النصي الذاتي وإنما في مزيد الحفاوة به وتفعيله في التطبيقات العقدية والفروعية والإلحاح المستمر علىٰ استحضاره، وهذا مستوىٰ معرفي مقرر، وهو أن الأئمة قد يشتركون في أصل العمل بقاعدة شرعية ويتفاوتون في مستوىٰ حضورها، ككثافة حضور الذرائع في فقه مالك وكثافة حضور قول الصحابي في مدرسة الحديث وكثافة حضور القياس في مدرسة العراق ونحو ذلك، وإن كان أصل هذه كلها حاضر عند مخالفهم.

حسنًا .. هذه هي الحال التي يريدها الله منا في الصلاة: أن نكون في سكون فلا تطوف أطرافنا وتتحرك ونعبث، وأن نخفض رؤوسنا ونطرق متذللين لمن نقف بين يديه .. وهذان الوصفان هما من أجل معاني الخشوع الذي عظّمه القرآن وربط الفلاح به .. والحقيقة أن هذين الوصفين (السكون) و(الإطراق) كليهما جاء النص عليهما في الصلاة في الصحيحين ..

فأما السكون ففي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: **(اسكنوا في الصلاة)**[1].

وأما الإطراق والتذلل بخفض الرأس وإنزال العينين في الصلاة ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **(«ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في صلاتهم؟!» فاشتد**

---

(١) صحيح مسلم (٤٣٠).

قوله في ذلك، حتىٰ قال: «لينتهُن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم»)[1].

وكثير من الناس إذا سمع السكينة والخشوع في الصلاة لا يقع في خاطره إلا تخيل الخشوع في القيام والتقيد بعدم الحركة .. ويغفل عن لحظات من أكثر هيئات الخشوع بهاء وجلالًا .. وهي التي تنفح هالة الإيمان حول المصلي .. وفيها من ذوق الأدب أمام الله ما تتطامن له القلوب .. وهي «لحظات الانتقالات بين الأركان» رفعًا وخفضًا بتمهّل وتؤدة ووقار .. فما أكثر ما ترىٰ مصليًا يهجم مبعثرة أطرافه إلىٰ السجود .. كأنما يرتمي منهكًا .. ويتقافز قائمًا كأنما هو محلول من عقال .. ويركع كجارح يخطف طعامه مستوفزًا عجلان ..

ومما يغفل عنه كثير من المصلين من هيئات الخشوع والسكينة لحظات «رفع اليدين بالتكبير وإنزالهما» .. فتراه يستعجل ولا يتئد في رفع يديه بالتكبير وخفضهما .. ويلقيهما شعثًا مجنحات بنزق .. ولا يتحرىٰ بهما بلوغ أذنيه أو منكبيه .. ولا يعود بهما برفق إلىٰ صدره .. والذي عظّم الصلاة إن لسكينة التكبير فخامة تلتقط الأنفاس .. ولعلك تتذكر كيف وصف البزار صلاة ابن تيمية حين قال: **«وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام»** ..

---

(١) صحيح البخاري (٧٥٠).

وهذه الحالة المتسرعة المنصلتة في انتقالات الصلاة ورفع اليدين بالتكبير شبّهها النبي ﷺ تشبيهًا تخجل منه صلواتنا التي يسابق المرء فيها نفسه .. بل الحقيقة أنه تشبيه مروّع مخيف .. لأن النبي ﷺ جعلها أحد مكونات «صلاة المنافق» ..

كم هي نتيجة مخيّبة أن يكتشف المرء نفسه يصلي منذ سنين صلاة تشبه صلاة المنافق؟! وهي «صلاة النقر» .. ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتىٰ إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا**)[1] ..

هل تصدّق أنني من شدة الحرج اكتشفت أنني أغالط نفسي بلا شعور .. وأقول في داخلي لعل النبي ﷺ علّق وصف النفاق هنا علىٰ تأخير الصلاة لآخر وقتها .. كنت كأنني استعجل وأنا أقرأ قوله «فنقرها أربعًا» .. كأنني أتهرب من مواجهة الحقيقة .. ثم وجدت ابن تيمية يقرصني ويقول: (**فبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث أن صلاة المنافق تشتمل علىٰ: التأخير عن الوقت الذي يؤمر بفعلها فيه، وعلىٰ النقر الذي لا يذكر الله فيه إلا قليلًا**)[2] ..

وأنا أقرأ هذا الحديث وشرحه لابن تيمية تذكرت صلواتي .. فتذكرت فورًا عبارة الفضيل بن عياض وهو يتضرع لله ويبكي ويقول

(١) صحيح مسلم (٦٢٢).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، ص(١٥/ ٢٣٥).

مناجيًا ربه: **(واسوأتاه والله منك وإن عفوت)**[1].

إي والله يا أبا علي .. واخجلتاه من ربنا وإن عفا عنا .. وأي عمود للإسلام سنقدم به عليه؟! .. وماذا يغني الرواق والأطناب إذا كان «العمود» منخورًا من الداخل ..

وقد قمت مرةً وجردت أحاديث الصلاة في صحيحي البخاري ومسلم، وكنت أتأمل المعاني المسلكية وراء هذه الأحكام الفروعية، وهي تبلغ زهاء ثمانمئة حديث، وكم أبهرتني النتيجة إذ وجدت أن كثيرًا من هذه الأحكام الفروعية التي تضمنتها الأحاديث النبوية تسير بك رويدًا حتىٰ توقفك عند عتبات الخشوع وإطراقة السكينة ..

وسأستعرض بعض النماذج:

فأول خطوة في هذا الشأن هي في طريقة إنشاء وتصميم المسجد الذي سيصلىٰ فيه من الأساس .. فبرغم أن التزيين والتجميل فرع عن الاهتمام والتعظيم في الأصل .. إلا أن الشارع نهىٰ عن زخرفة المساجد لأنها تشغل المصلين، والخشوع أهم وأولىٰ .. وقد بوب البخاري في صحيحه فقال: **(باب بنيان المسجد وأمر عمر ببناء المسجد وقال: «وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس» وقال ابن عباس: «لتزخرفنها كما زخرفت اليهود**

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٣٨٩٧).

والنصارىٰ»)[1] ثم روىٰ حديث ابن عمر الذي يدل علىٰ تواضع بناء مسجد رسول الله وهدوء مكوناته الإنشائية بما يبعث الوئام والسكينة للمصلي . .

ويكفي في هذا كله حديث إرجاع خميصة أبي جهم وإماطة قرام عائشة . . وهما مجرد أقمشة . . فكيف بأنواع الطلاء والزخارف والنقوش الصارخة التي ابتليت بها مساجد المسلمين اليوم . . كأنما تتحدىٰ المصلي بالتفنن في إغرائه وإذعانه لزينتها . . هل باني المسجد يريد أن يوصل رسالة للمصلين أنه بنىٰ المسجد من ملاءة لا من كفاف . . أم هو يتقرب لله علىٰ سنة نبيه؟

ثم إذا قام المسجد علىٰ الوصف النبوي المتواضع . . وصدح المؤذن وهم المصلي بالذهاب، ولكن سفرة الطعام قد انبعثت رائحتها الزكية فانشغل القلب المتضور، فقد أوصاه رسول الله ﷺ بأن يجلس ويكمل طعامه حتىٰ يفرغ باله ثم يقوم للصلاة منصبًا تفكيره علىٰ صلاته بخشوع . . ففي الصحيحين قال ﷺ **(إذا قُرِّب العشاء، وحضرت الصلاة، فابدؤوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم)**[2] . . وفي صحيح مسلم **(إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعشاء، ولا يعجلن حتىٰ يفرغ منه)**[3].

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٦).

(٢) البخاري (٦٧٢)، مسلم (٥٥٧).

(٣) صحيح مسلم (٥٥٩).

وهكذا في كل المشغلات وجّهنا النبي ﷺ للتخلص منها قبل أن نمضي للصلاة حتىٰ لا يخدش مقصود الصلاة الأعظم وهو الخشوع .. ومن ذلك ما في صحيح مسلم **(لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان)**(١).

فإذا تخلص المؤمن من هذه المشغلات التي تقطع صفاء تفكيره في الصلاة وهمّ بالمضي للمسجد المتواضع الهادئ فقد نبّهه رسول الله ﷺ علىٰ نمط المشي وطريقة مد الخطىٰ كل ذلك تحصيلًا للسكون حتىٰ في طريق المشي للصلاة ذاتها! ففي الصحيحين قال ﷺ: **(إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون وعليكم السكينة)**(٢) ..

بل نص رسول الله ﷺ علىٰ الاحتشام بعباءة الوقار أثناء المشي للصلاة فقال ﷺ: **(إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلىٰ الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار)**(٣).

والحقيقة أن التحليل الذهني الصرف قد يرىٰ أن الاستعجال في المشي للصلاة يظهر منه معنىٰ المسارعة للخيرات .. ولكني النبي ﷺ نبّه لخلاف ذلك .. فالاستعجال في المشي للصلاة تثور معه الأنفاس وتضطرب الأصوات وتتشوش معه السكينة .. سواء سكينة الماشي للصلاة أو سكينة المأمومين بسبب ضجيج الأصوات

---

(١) صحيح مسلم (٥٦٠).

(٢) البخاري (٩٠٨)، مسلم (٦٠٢).

(٣) البخاري (٦٣٦)، مسلم (٦٠٢).

خلفهم .. ولذلك ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة (**بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ، فسمع جلبة، فقال: «ما شأنكم؟» قالوا استعجلنا إلىٰ الصلاة، قال «فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم السكينة»**)[1].

فإذا كان كل هذا الاهتمام بالسكينة في «المشي» للصلاة فكيف في «الصلاة» ذاتها؟!

وحين يتقدم المؤمن للمسجد قبل الإقامة فيتنفل ويدعو ويتلو شيئًا من القرآن .. ثم يهتف صوت المؤذن بالإقامة .. فإن بعض الناس يختلج بحركات مفاجئة بلا تؤدة .. وقد نبّهنا رسول الله ﷺ حتىٰ في هذا الموضع وهو مجرد قيام من الصف للصلاة أن نقوم بسكينة .. ففي البخاري: (**إذا أقيمت الصلاة، فلا تقوموا حتىٰ تروني وعليكم بالسكينة**)[2] ..

ثم قبل أن يكبر المصلي إمامًا أو منفردًا فقد ندبه النبي ﷺ لوضع سترة تحجز نظر المصلي لتحفظ عليه خشوعه وترد بصره لئلا يتفلت في الوسط المحيط .. فإن النفوس إذا لم توضع لها حدود استرسلت .. وصارت كل خطوة من التفسح البصري ترقّق ما بعدها .. وحاجة النفوس للحدود عام في الطعام والسماع والكلام والنظر ونحوها من موارد الحس ..

---

(١) صحيح مسلم (٦٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٣٨).

وقد صلىٰ النبي ﷺ إلىٰ الجدار والراحلة ومؤخرة الرحل والحربة والعنزة وكل ذلك في الصحيحين، ولذلك صار الصحابة شديدي الحرص علىٰ السترة .. وفي البخاري عن أنس بن مالك قال: (**لقد رأيت كبار أصحاب النبي ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب**)[1].

وغلّظ النبي ﷺ تغليظًا شديدًا في المرور بين المصلي وسترته لأن المارّ يبلبل وحل الدنيا بعد أن صفىٰ ماء المناجاة .. ولذلك ففي الصحيحين قال ﷺ: (**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين خيرا له، من أن يمر بين يديه**)[2] ..

بل أمر النبي بما هو فوق ذلك كله كما في الصحيحين أنه قال: (**إذا صلىٰ أحدكم إلىٰ شيء يستره من الناس، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه، فليدفع في نحره فإن أبىٰ فليقاتله، فإنما هو شيطان**)[3].

فتمعن بالله عليك في عظمة أحكام «سترة المصلي» وما جاء فيها من الأحاديث في الصحيحين .. ثم استحضر أن كل هذه الأحكام النبوية رعاية لجناب «الخشوع» .. وحفظًا لمقام السكينة والإخبات في الصلاة .. وردًا لتفلت البصر ..

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٣)، صحيح مسلم (٨٣٧).

(٢) صحيح البخاري (٥١٠)، صحيح مسلم (٥٠٧).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٩)، صحيح مسلم (٥٠٥).

فإذا انتهىٰ المؤمنون من بناء مسجدهم الوديع في تصميمه .. وفرغوا من المشغلات من الطعام وحاجات الخلاء .. ومشوا للصلاة بسكينة .. وسمعوا الإقامة فقاموا للصف بسكينة أيضًا .. ثم كبروا بين يدي الله .. فإن بقاء يدي المصلي بعد التكبير مرسلتين حرّتين تهيجهما للحركة والتجول بين أعضاء الجسم .. فشرع النبي تقييدهما ببعضهما علىٰ الصدر .. لاعتقال بواعث العبث .. كما في حديث وائل بن حجر في صفة صلاة النبي ﷺ **(ثم وضع يده اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ)**[1].

وهذا الفهم لحكمة «وضع اليدين علىٰ الصدر» شائع بين العلماء، قال النووي: **(قال العلماء والحكمة في وضع إحداهما علىٰ الأخرىٰ أنه أقرب إلىٰ الخشوع ومنعهما من العبث)**[2].

ثم تمعّن أيضًا كيف نهىٰ عن ضم الثياب والشعر في الصلاة لما في تركهما من كمال الأدب والإخبات بسجود الشعر، وفي كفهما انشغال، ففي الصحيحين **(ولا أكف ثوبًا ولا شعرًا)**[3]، ولذلك شبّه النبي ﷺ من يصلي معقوص الشعر بأنه مثل مكتوف اليدين، أي أنه لا تمس يده الأرض، كما في صحيح مسلم قال ﷺ: **(إنما مثل هذا، مثل الذي يصلي وهو مكتوف)**[4]، وقد

---

(١) صحيح مسلم (٤٠١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، تحقيق خليل الميس، دار القلم، ص(٤/ ٣٥٨).

(٣) صحيح البخاري (٨١٦)، صحيح مسلم (٤٩٠).

(٤) صحيح مسلم (٤٩٢).

قال ابن تيمية (**والمعقوص لا يسجد شعره**)[1]، وهو مأثور عن ابن مسعود، والمعقوص والمكتوف كلاهما مشدودان للخلف.

ثم تدبّر كيف نهىٰ النبي ﷺ عن تسوية محل السجود إلا بأقل حركة، ففي الصحيحين عن معيقيب (**أن رسول الله ﷺ قال في الرجل يسوي التراب حيث يسجد: «إن كنت لا بد فاعلًا فواحدة»**)[2].

ثم تبصّر في سنة الإبراد المذكورة في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة**)[3]، كل ذلك دفعًا لتأذي الجسد بآثار حرارة الطقس، ليكون أجمع للقلب فلا يتشتت، فانظر كيف أثّر طلب «الخشوع» في تغيير وقت الفضيلة في الصلاة!.

وبرغم أن الأصل أن يكون السجود علىٰ الأرض، ولا يسجد المصلي علىٰ حائل متصل به، لكن مع الحر شرع الشارع السجود علىٰ «الثوب» ففي الصحيحين عن أنس (**كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في شدة الحر، فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكن جبهته من الأرض، بسط ثوبه، فسجد عليه**)[4] وقال ابن حجر منبّها علىٰ خلفيات هذا الحكم: (**وفيه مراعاة الخشوع في الصلاة لأن الظاهر أن صنيعهم**

---

(١) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٢٢/ ٤٥٠).

(٢) صحيح البخاري (١٢٠٧)، صحيح مسلم (٥٤٦).

(٣) صحيح البخاري (٥٣٦)، صحيح مسلم (٦١٥).

(٤) صحيح البخاري (١٢٠٨)، صحيح مسلم (٦٢٠).

ذلك لإزالة التشويش العارض من حرارة الأرض)[1].

ولأن جوهر «الخشوع» الذي تدور حوله أحكام الصلاة هو أن يعقل الإنسان صلاته ويحيا معاني أذكارها ويستشعر روح هيئاتها، فإن النبي ﷺ لم يقل للناعس: اذهب وجدد بالماء نشاطك، بل قال له: «اذهب ونم»! فنهىٰ الناعس عن مواصلة الصلاة لفوات المقصود الأصل وهو عقل المعاني، ففي البخاري أن النبي ﷺ قال: **(إذا نعس أحدكم في الصلاة فلينم، حتىٰ يعلم ما يقرأ)**[2].

ولأن المساجد قد تغشاها النساء أحيانًا للصلاة فقد شرع النبي ﷺ لهن أحكامًا تنتهي كالعادة بالمطلوب الأجل وهو منع كل ما يشوش «الخشوع» .. فندب لمباعدة المسافة بين مواضع صلاة كل جنس منهما .. فجعل أفضل صفوف الرجال هو الصف الأول، وبالمقابل جعل أفضل صفوف النساء هو الصف الأخير! فصارت فضيلة الصف لها نوع ارتباط بكمية المسافة بين الجنسين في المسجد ..كما قال: **(خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها)**[3].

ونهىٰ النبي ﷺ المرأة أن تخطو للمسجد وقد تبللت بعطوراتها فقال: **(إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا)**[4] .. بل

---

(١) ابن حجر، **فتح الباري**، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الريان، ص(١/ ٥٨٨).

(٢) صحيح البخاري (٢١٣).

(٣) صحيح مسلم (٤٤٠).

(٤) صحيح مسلم (٤٤٣).

أمرها بتجنب العطر ليلتها تلك فقال (**إذا شهدت إحداكن العشاء فلا تطيب تلك الليلة**)[1] .. فإن فعلت وتعطّرت منعها النبي من شهود الصلاة (**أيما امرأة أصابت بخورا فلا تشهد معنا العشاء الآخرة**)[2].

فإذا تأملت مباعدة صفوف الجنسين، ومنع النساء العطور في المسجد؛ لم يخطئ شعورك بكمال اهتمام النبي ﷺ بحفظ جناب الخشوع من أن يتشوش بتنمّل الدواعي الغريزية ..

أرأيت .. كادت كل دروب أحاديث الصلاة أن تنتهي بنا إلىٰ محراب الخشوع ..

وما زال في مفكرتي تأملات أخرىٰ دونتها أثناء تأملي لأحاديث الصلاة في صحيحي البخاري ومسلم .. ولكني أشعر أنه من غير المناسب مواصلة العرض .. فالمقصود ذكر بعض النماذج التمثيلية الدالّة .. وليس المراد الاستقصاء والاستيعاب ..

فبالله عليك أي دلالة علىٰ منزلة الخشوع والسكون والإطراق والتؤدة والتمهل في الصلاة أعظم من هذه الدلالات .. ليست القضية آية أو حديث يأمر بالخشوع .. بل هناك «منظومة أحكام» كلها تأخذ بيدك إلىٰ أن تتنفس أثير الخشوع .. وهذا يعني أننا إذا أهدرنا الخشوع لم نهدر حكمًا شرعيًا واحدًا، بل ضيعنا ثمرة كل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ما أسسه الشارع من ضمانات الخشوع ووسائله التي تفضي إليه ..

والمعنىٰ الشرعي الذي تتواطأ عليه نصوص كثيرة أجل وأعظم منزلة من المعنىٰ الشرعي الذي يأتي بتقريره نص أو نصان حتىٰ لو كانا صريحين مباشرين .. ولذلك كان التواتر المعنوي أعظم دلالة من التواتر اللفظي وإن توهم أكثر الناس خلاف ذلك .. لأن التواتر اللفظي المجرد قوته في الثبوت فقط، وأما التواتر المعنوي فقوته في الثبوت والدلالة كليهما، فليس المعنىٰ الذي كرره الشارع بصيغ متنوعة كالمعنىٰ الذي ذكره مرةً أو مرتين، فالتواتر المعنوي فيه قدر زائد علىٰ مجرد اليقين الثبوتي وهو «تعدد التأكيد» من الشارع ..

فإذا كان الشارع يسترسل بإصدار الأحكام الفروعية طلبًا لتحصيل الخشوع .. ثم ما زال الخشوع ليس له حضور في اهتماماتنا يوازي اهتمام رسول الله .. فأين سنذهب بوجوهنا من الله غدًا؟

وما أكثر ما تساءلت كيف يقع المرء في صلاته في أحبولة الاستلهاء والتخيلات والهواجس وهو مؤمن بأن هذه كلها من مؤامرات الشيطان التي كشفها لنا رسول الله ﷺ .. فهذه الذكريات والسرحان وحديث النفس الذي يهجم علىٰ المرء بمجرد تكبيرة الإحرام نحن نعرف مصدره جيدًا .. ومع ذلك ما زلنا ضحيته .. فأما مصدره فقد نبّهنا النبي ﷺ ما الذي يحدث بعد انتهاء التثويب أي إقامة الصلاة فقال ﷺ: (**حتىٰ إذا قُضِي التثويب،**

أقبل الشيطان حتىٰ يخطر بين المرء ونفسه، يقول له: اذكر كذا، اذكر كذا .. لما لم يكن يذكر من قبل، حتىٰ يظل الرجل ما يدري كم صلىٰ)[1] .. وفي رواية: **(فهنّاه ومنّاه، وذكره من حاجاته ما لم يكن يذكر)**[2] ..

فبالله عليك .. هل يختلف المشهد في صلاتنا عما ذكره رسول الله ﷺ؟!

فتأمل قوله «**اذكر كذا .. اذكر كذا ..**» وكيف تتزاحم فعلًا أحاديث النفس في الصلاة ترتطم موضوعاتها ببعضها وتفتح الملفات واحدًا تلو الآخر، ويسلمك السابق للاحق، حتىٰ تصبح حركتك في الصلاة انتقالات آلية لا يعقل المصلي معناها ..

وتأمل قوله «**لِما لم يكن يذكر من قبل**» ألست تجد هذا فعلًا؟! فإذا كبّرت للصلاة أثيرت أمامك الموضوعات المنسية؟!

وتأمّل قوله «**فهنّاه ومنّاه**» أي هيّج عليه المطامع والأماني .. وكم أجرىٰ المصلي من توقّعات مالية وأحلام دنيوية!

هذا هو المشهد الذي كشفه لنا رسول الله ﷺ .. وهذه هي السيناريوهات بعينها التي يستعملها الشيطان فور تكبيرة الإحرام .. كيف نعرف موضع الفخ جيدًا ثم نسمي بالله ونضع ساقنا فيه كل مرة؟!

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٨)، صحيح مسلم (٣٨٩).

(٢) صحيح مسلم (٣٨٩).

وكم تساءلت ما أكثر أن تندلق «أذكار الصلاة» علىٰ ألسنتنا لا نعقل من معانيها شيئًا .. أصبحنا في صلاتنا كأننا أجهزة آلية تنطق نصوصًا مخزّنة مسبقًا .. وهل تعقل الآلة من ذاكرتها شيئًا؟! .. فيفوت علينا من عيش أجر الألفاظ الصلوية في الآخرة بقدر ما فات من عيش معانيها في الدنيا ..

تأمل مثلًا بعض فضائل الألفاظ الصلوية:

الله جل جلاله يجيب عبده إذا قرأ الفاتحة فيقول له: «**حمدني عبدي .. أثنىٰ علي عبدي .. مجدني عبدي .. إلخ**»[1] .. أتُرانا ننطق آيات الفاتحة ونحن ننتظر جواب ربنا؟

ثم إذا أمّن الإمام أكرمنا الله بهذا الفضل (**إذا أمن الإمام فأمّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**)[2] .. فهل نحن نتحرىٰ تأمين الإمام لنحوز الفضل؟

ثم إذا جاء موضع التحميد بعد الركوع فتح الله لنا هذا الطريق للثواب كما في البخاري (**كنا يوما نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فلما انصرف النبي قال: «من المتكلم؟!»، قال الرجل: أنا، قال النبي «رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول»**)[3] .. فهل نقول هذا

(١) صحيح مسلم (٣٩٥).

(٢) صحيح البخاري (٧٨٠).

(٣) صحيح البخاري (٧٩٩)، صحيح مسلم (٦٠٠).

الذكر ونحن نستشعر هذا الفضل المذهل؟

فإذا بلغ المصلّي موضع «التحيات» أرشده النبي لقول: «**السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين**» وذكر النبي ﷺ من فضلها (**فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض**)[1] .. فهل نتضرع بهذا الدعاء ونفوسنا تتحرىٰ نفع كل عبد صالح؟

هذه بعض فضائل الألفاظ الصلوية .. فانظر إلىٰ عظمة هذه الألفاظ .. ولنبكِ علىٰ ما فاتنا من أجورها بقدر ما فات من تدبرها وعقل معناها أثناء الصلاة ..

ويظهر لي أن جذر الخشوع مرتبط بقضية اعتقادية .. وهي درجة العبد من منزلة الإحسان .. التي هي فوق الإسلام والإيمان والإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» .. وهذا الاعتقاد واستحضاره درجات متفاوتة لا ينضبط طرفاها .. فكلما صعد العبد في مرقاة الإحسان أومضت في قلبه نوافذ الخشوع .. ولذلك قال النووي عن قول النبي ﷺ «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»:

(لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالىٰ؛ لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه علىٰ الاعتناء بتتميمها علىٰ أحسن وجوهها إلا أتىٰ به ..، وقد ندب أهل الحقائق إلىٰ مجالسة

---

(١) صحيح البخاري (٨٣١)، صحيح مسلم (٤٠٢).

الصالحين ليكون ذلك مانعًا من تلبسه بشيء من النقائص، احترامًا لهم واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالىٰ مطلعًا عليه في سره وعلانيته؟!)[1].

ولفت انتباهي في كتب علم السلوك أن العلماء حين يحاولون إحياء الخشوع في نفس القارئ وتذكيره بمنزلته أنهم يستخدمون المقارنة بين «الوقوف أمام ملوك الأرض والوقوف أمام ملك الملوك سبحانه» .. ثم يأخذون في العتاب والتوبيخ: كيف يسكن المرء ويتأدب ويستجمع تفكيره أمام ملوك الأرض ويعبث غافلًا أمام ملك الملوك سبحانه وتعالىٰ .. وسأعرض نموذجًا لهذه المقارنة المقصودة ..

فمثلًا يقول أبو حامد الغزالي: **(فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا، وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم، حتىٰ يدخل الواحد علىٰ ملك أو وزير، ويحدثه بمهمته، ثم يخرج، ولو سئل عمن حواليه، أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر علىٰ الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه، فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه)**[2] ..

ويكرر أبو حامد هذه المقارنة في موضع آخر فيقول: **(وكل**

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، تحقيق خليل الميس، دار القلم، ص(١/ ٢٧٢).

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الخير، ص(١/ ٢١٧).

من يطمئن بين يدي غير الله ﷻ خاشعا وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله)[1].

ويستعمل ابن القيم ذات هذا الأسلوب في المقارنة بين الوقوفين لكن بصيغة أخرىٰ فيقول:

(ومَثَل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه؛ مثل رجلٍ قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينًا وشمالًا، وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم ما يخاطبه به، لأن قلبه ليس حاضرًا معه، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتًا مبعدًا قد سقط من عينيه؟! فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل علىٰ الله في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه فامتلأ قلبه من هيبته، وذلت عنقه له، واستحيا من ربه أن يقبل علىٰ غيره أو يلتفت عنه)[2].

وهذا الأسلوب شائع في كتب علم السلوك الإسلامي .. وكنت سابقًا أظنه من ابتكار عمالقة هذا الفن لتقريب المعنىٰ الإيماني للخشوع .. ثم تعجبت حين اتضح لي أن هذا الأسلوب استعمله قبل هؤلاء كلهم رسول الله ﷺ حيث قرّب المعنىٰ

---

(١) المصدر السابق، ص(١/ ٢٢٤).

(٢) ابن القيم، **الوابل الصيب**، تحقيق عبد الرحمن قائد، نشرة مجمع الفقه، ص(٤٤).

للصحابة بالمقارنة في الأدب في القيام بين يدي المخلوق والقيام بين يدي الخالق كما في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: **(ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبَل فيُتنخَّع في وجهه؟!)**[1].

ولهذا نظائر كثيرة في السنة في غير موضوع الأدب في الصلاة، ومنها مقارنة النبي ﷺ بين حرص الناس علىٰ الأجر الدنيوي وحرصهم علىٰ الأجر الأخروي! كما قال ﷺ في المتخلفين عن صلاة الجماعة: **(ولو علم أحدهم أنه يجد عظمًا سمينًا لشهدها، يعني صلاة العشاء)**[2] وقال عن التلاوة في الصلاة: **(«أيحب أحدكم إذا رجع إلىٰ أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟» قلنا نعم، قال «فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته، خير له من ثلاث خلفات عظام سمان»)**[3] ..

ونظائر هذا كثير .. والمراد أن تلك المقارنات القياسية البديعة المشار لها التي يصوغها أمثال أبي حامد الغزالي وأبو الفرج ابن الجوزي وابن القيم وأضرابهم .. أن أصلها مستقىٰ من رسول الله ﷺ .. لكن استفاض أهل العلم في التنويع عليها وتطبيقها في مشاهد جديدة ..

ضع في ذهنك مجددًا الحديث السابق في صحيح مسلم **(ما**

---

(١) صحيح مسلم (٥٥٠).

(٢) صحيح مسلم (٦٥١).

(٣) صحيح مسلم (٨٠٢).

بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبَل فيُتنخَّع في وجهه؟!) .. ثم تلثّم وخذ جولة في سوء الأدب الذي يقع فيه بعض المصلين بين يدي الله .. فكم فينا من يقوم بسلوكيات يتمزق خجلًا لو رآه يصنعها ذوو الجاه من الخلق .. وهو يفعلها بين يدي رب الخلق سبحانه .. فكم فينا من يعارك أنفه ينظفه في الصلاة .. وبعضهم يكثر من حك ما يستحيا من حكّه .. وآخر يرفع سرواله في الصلاة بطريقة غير مؤدبة يرسل مطاطه يستحلي فرقعة صوته .. وسلوكيات كثيرة يجمعها «قلة التهذيب» .. تزكم الأنوف .. ويخجل المرء أن يفعلها أمام المعظّمين من الخلق .. وهو يفعلها أمام العظيم سبحانه ..

اللهم اغفر لي تقصيري في صلاتي .. واغفر لإخواني المسلمين ممن قصّر في صلاته .. وارزقنا قلبًا خاشعًا يارب العالمين ..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

جناح الذل

كثيرة هي العبارات التي تمر بالمرء في حياته قراءةً أو سماعًا، بعضها يفقده الذهن ويتشرد من الذاكرة فور مروره عليها ..

بعض الكلمات كأنها زائر دخل بالخطأ واعتذر أنه يريد السلام ويمضي فقط ..

وبعض الكلمات تحفر حروفها في الذهن .. بل لربما مضىٰ الزمن وقد ترعرعت حولها ذرية من العبارات المتولدة عنها ..

هل للعبارات تاريخ صلاحية؟ أم أن أذهاننا كولونيالية، تؤوي وتقمع وتطرد، دون قوانين واضحة؟

وثمة كلمة في كتاب الله مرت بي ولأول وهلة سمعتها وهي تحمل سؤالًا في نفسها ..

وهي استعارة قرآنية خلبت اهتمامي .. ومكثت أفكر فيها زمنًا:

ما مراد الله سبحانه بهذا التركيب؟

وماذا أراد الله أن يوحي من المعاني من جزء العبارة الأول لجزء العبارة الثاني؟

هذه الاستعارة القرآنية هي التي اخترت أن تكون عنوان هذا الفصل، وهي قول الله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤].

نحن نعرف أن (الجناح) جزء حسي في الطيور ركّبه الله فيها تخفق به وتتنقل .. ونرفع رؤوسنا في ميادين السماء فنرىٰ هذه الطيور تميل بأجنحتها .. فتنشرها وتصفق بها .. بل هذه الصورة ذاتها ذكرها القرآن في موضع آخر ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: ١٩].

فوصف الله في هذه الآية أجنحة الطير وهي فوقنا في السماء إذ تبسط أجنحتها تارة فتصفّها .. وإذا تضرب بأجنحتها جنوبها تارةً أخرىٰ فتقبضها ..

ويدلك علىٰ عظمة هذا المشهد من مشاهد حركة أجنحة الطير أن الله ذكره أيضًا في موضع آخر من القرآن فقال الله: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النور: ٤١].

وأشار الله لهذا المشهد بصورة مجملة في موضع آخر فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩].

حسنًا .. هذا مشهد من مشاهد جناح الطير في كتاب الله .. وهو لا يخفىٰ علىٰ القارئ .. لكن السؤال الذي كان يقرع ذهني بصورة مستمرة هو السؤال التالي:

لماذا أضاف الله هذا (الجناح) الحسي المعروف، إلىٰ (الذل) الذي هو سلوك أخلاقي وجزء منه شعور معنوي؟

ما مغزىٰ هذه الاستعارة؟ وماذا يريد الله سبحانه بهذا التركيب اللغوي؟

ولنجعل التساؤل أكثر تحديدًا: ما هي الدلالة المتطلب إيحاؤها من لفظ الجناح بما يخدم مفهوم الذل؟

هذا السؤال تأملته كثيرًا .. وما زالت تتكشّف لي فيه دلالات فسيحة الأرجاء ..

ثم لما تتبعت تأملات البلاغيين والمفسرين في هذه الاستعارة القرآنية استحوذت علي الدهشة من تفاوتهم في استكشاف العلاقة بين الجناح والذل .. ورأيتهم داروا حول أربع علاقات ..

ومن أول من رأيته من أهل العلم طرح تحليلًا لمكونات هذه الاستعارة وتفسير العلاقة بين الجناح والذل هو العلامة القفال الشاشي الكبير (ت٣٦٥هـ)، والقفال الشاشي رحمه الله طرح وجهين للعلاقة بين الجناح والذل:

فأما الوجه الأول فهو أنه لما كان الطائر ينشر جناحه ويرفعه إذا أراد التحليق والصعود، ويخفض جناحه إذا أراد الهبوط والنزول، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين بأنه كأنه خفض جناح من الطأطأة والخضوع.

وأما الوجه الثاني فجوهره أن الطائر يحنو علىٰ فراخه فيلفّهم

بجناحه ويسبله عليهم تعطّفًا وشفقة، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين والرحمة بهم كأنه خفض جناح الطائر علىٰ فراخه.

كما يقول القفال:

(في تقريره وجهان: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما إلىٰ نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك. والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه؛ فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه)[1].

هذان هما الوجهان اللذان طرحهما القفّال الشاشي رحمه الله في تفسيره، إلا أن تفسيره هذا مفقود، ولم يقع بأيدينا، ردّه الله علىٰ أمة محمد، ونحن ننقل عنه هذه المعلومة السابقة بالواسطة، من خلال ما يقتبسه المفسرون عنه.

وكثيرًا ما يمر بالقارئ في كتب التفسير قولهم «قال القفال»،

---

(١) انظر نقل المفسرين هذا التحليل عن القفال الشاشي في: الرازي، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر (٢٠/ ١٩٢)؛ أبو حيان، **البحر المحيط**، تحقيق عادل عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ص(٦/ ٢٥)؛ ابن عادل، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق عادل عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ص(١٢/ ٢٥٩). ولست متأكدًا هل أبو حيان وابن عادل ينقلان عن تفسير القفال مباشرة، أم ينقلان عن الرازي عنه؟ والأشبه الثاني والله أعلم.

وهذا الذي يرد في كتب التفسير هو القفال الشاشي الكبير، وأما إذا قيل «قال القفال» في كتب الفقه الشافعي الوسيط كالنهاية والوسيط والمهذب ونحوها فالمقصود به القفال المروزي الصغير (ت٤١٧هـ)، وهو نجم الطريقة الخراسانية في الفقه الشافعي، وكلاهما شافعيان، وكلاهما يكنىٰ أبا بكر، ومن هنا ينشأ الخلط بينهما، ونبّه علىٰ هذا الفرق بين القفّالَيْن أبو زكريا النووي رحمه الله[(١)].

وقد رأيت أطروحات أكاديمية في جمع تفسير القفال الشاشي الكبير من خلال النقولات المتناثرة عنه في كتب التفسير.

وفي القرن السابع رأيت الأديب ضياء الدين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) يطرح تحليلًا ثالثًا للعلاقة بين الجناح والذل، ففي كتابه «المثل السائر» اعتبر أن الطائر إذا أدركه الإعياء والوهن خفض جناحه، فصوّر التذلل للوالدين بهذه الصورة، كما يقول ابن الأثير:

(فإن الجناح للذل مناسب، وذاك أن الطائر إذا وهن أو تعب بسط جناحه، وخفضه وألقىٰ نفسه علىٰ الأرض)[(٢)].

وبصراحة فإن هذا الكتاب لابن الأثير ثري بتحليلات تطبيقية بلغة في غاية العذوبة لكيفية صناعة الجمال البياني.

---

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق عادل مرشد وزميله، دار الرسالة العالمية، ص(٤٤٢).

(٢) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وزميله، دار نهضة مصر، ص(٢/ ١٥٣).

وأما العالم المتفنن الشهاب الخفاجي (ت١٠٦٩هـ) فقد أشار إلىٰ وجه رابع، وهو أنه لما كان الطائر يحلق ويطير شامخًا، فإذا فاجأه الجارح والبازي شلّه الذعر وأعياه الطيران ولصق بالأرض وخفض جناحيه كالمطرق الذليل، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين كأنه خفض جناح الطائر المستسلم المطرق، كما يقول الشهاب:

(وأيضًا: هو إذا رأىٰ جارحًا يخافه لصق بالأرض، وألصق جناحيه، وهي غاية خوفه وتذلُّله)[1].

هذه أربع استكشافات لمغزىٰ الاستعارة القرآنية (جناح الذل) .. ذكر اثنتين منها القفال الشاشي وذكر الأخريين الضياء ابن الأثير والشهاب الخفاجي ..وثلاثتهم في علوم العربية بمنزلة الغُرر والحجول.

وحينما اطلعت أول مرة علىٰ هذه التحليلات الأربع لوجه الصلة بين الجناح والذل في هذه الاستعارة القرآنية مكثت زمنًا تداهمني المقارنة بينها كلما ارتطمت بموقف تسح فيه الكهولة عبراتها علىٰ موقف عقوق ..

حينما أرىٰ شابًا عليه سيماء الاستقامة لكنه يجادل والده بمنطق الند ويستظهر عليه الحجة تحاصرني مجددًا هذه الوجوه الأربعة في هذه الاستعارة القرآنية ..

---

(١) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي علىٰ تفسير البيضاوي، دار صادر، ص(٦/ ٢٤).

حتىٰ ربما خرجت من عالم الموقف المحيط بي وسرحت في عالم التأملات . .

وأبقىٰ أردد في ذهني:

هل هذا خفض جناح الذل كما يخفض الطير جناحه للهبوط؟

هل هذا خفض جناح الذل كما يسبل الطير جناحه لفراخه حنوًا عليهم؟

أهذا خفض الجناح كما يخفض الطير جناحه من الوهن؟

هل هذا الإطراق الذي يريده الله أمام الوالدين كما يطرق الطير استسلامًا أمام البازي؟

وهكذا أعيد قراءة المشهد علىٰ ضوء كل التحليلات البلاغية التي طالعتها لآية ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ . .

هل كنت أتفطّر من الفارق بين البر الشاهق في الآية وبين منحدرات العقوق في حياتنا الاجتماعية؟

أم تراني كنت أقارن بين هذه التحليلات أبحث عن الراجح منها علىٰ ضوء الواقع؟

أم تراني كنت أبحث عن أكبر قدر من التحليلات البيانية تجوب أقصىٰ ما يمكن من الجغرافيا الدلالية لهذه الاستعارة التي خلبت اهتمامي؟

لم يقف إبهار هذه الآية لي عند هذا الأفق . . بل تكشّفت لي فيها أفلاك معنوية جديدة أيضًا . .

فقد ذكر أصحاب علم القراءات أن كلمة «الذل» في هذه الآية أنزلها الله بقراءتين .. بضم الذال «الذُّل» وهي القراءة المشهورة التي نقرأ بها .. ولكن ثمة قراءة أخرىٰ لعلها أشد دلالة علىٰ التذلل منها وهي قراءة كسر الذال «الذِّل» .. وما الفرق بينهما؟

يقول ابو الفتح ابن جني أثناء توجيهه القراءتين:

(ومن ذلك قراءة ابن عباس وعروة بن الزبير في جماعة غيرهما «جناحِ الذِّل»، قال أبو الفتح: «الذِّل» في الدابة ضد الصعوبة، و«الذُّل» للإنسان وهو ضد العز، وكأنهم اختاروا للفصل بينهما الضمة للإنسان والكسرة للدابة)[1].

فانظر بالله عليك في هذه القراءة الأخرىٰ التي بالكسر كيف أراد الله فيها أن نكون في التذلل للوالدين كما تكون الدابة ذليلة منقادة مستكينة مطاوعة لراعيها ..

فإذا ضممت الإيحاءات البلاغية لكلمة (خفض الجناح) وأضفتها لـ(الذِّل) بالكسر الذي يكون للدابة .. انفتحت لمتدبر القرآن أقصىٰ ما يمكن من معاني الإذعان .. وأن يكون الابن هش العنان لأبويه ..

ولست في حاجة للتذكير أن الاتجاه من أهل العلم الذي ينكر المجاز له مسار مختلف في قراءة هذا التركيب وأنهم يحملون

---

(١) ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي ناصف وزميله، نشرة لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص(٢/ ١٨).

الجناح علىٰ الحقيقة، ولهم كلام خاص في خصوص هذه الآية[1].

كنت مرةً أراجع بعض مسائل (فقه الحسبة)، وأحكام (النهي عن المنكر)، ووجدت بعض أهل العلم استشكل مسألة وقوع الأب في المنكر، وهل ينكر عليه ابنه؟ ومنشأ الإشكال أن النفوس تشعر بأن من ينهاها عن المنكر أنه إنما يخاطبها بفوقية ..

فالإمام أحمد نقل عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية في الفصل المعقود لهذه المسألة أنه قال: «ليس الأب كالأجنبي»، والغزالي في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإحياء قسّم الحسبة لخمس مراتب، وجعل اثنتان منها تليق من الابن للوالد وهما مرتبة التعريف ومرتبة الوعظ اللطيف، والبقية لا تليق، وذكر السنامي الحنفي (ت٧٤٣هـ) في كتابه «نصاب الاحتساب» اعتبارات أخرىٰ ..

مررت بهذه المعالجات .. وكنت أتأمل الراجح فيها .. ولكنني بكل صراحة لم أستطع أن أتجاوز عبارةً لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله .. حيث علّق علىٰ هذه المسألة تعليقًا بديعًا لم ينسَ فيه تلك الاستعارة التي أذهلتني .. يقول القرافي:

(المسألة الأولىٰ: أن الوالدين يُؤمران بالمعروف ويُنهيان عن

---

(١) انظر: ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٢٠/ ٤٦٥)؛ ابن القيم، **مختصر الصواعق**، دار الكتب العلمية، ص(٢٤٢)؛ الشنقيطي، **منع جواز المجاز في المنزل للتعبّد والإعجاز**، مطبوع مع **دفع إيهام الاضطراب** للمؤلف، إشراف بكر أبو زيد، نشرة مجمع الفقه، ص(٣٠).

المنكر، قال مالك: ويخفض لهما في ذلك جناح الذل من الرحمة)[1].

حين قرأت تعقيب الإمام مالك في هذا الجواب، شعرت أنه أجاب بمشروعية النهي عن المنكر إذا وقع فيه الأب، لكن الإمام مالك تذكر هذه الآية العظيمة، ولم تغب عن ذهنه هذه الاستعارة التي تضمنتها والتي تهز قلب المؤمن، فعقّب فورًا بتهذيب أسلوب الإنكار، وقال: «ويخفض لهما في ذلك جناح الذل» ..

بل سأكاشف القارئ أنني حين قرأت تعقيب الإمام مالك هذا قلت في نفسي: هل يا ترىٰ كان مالك يفكر كثيرًا في هذه الاستعارة القرآنية؟ هل كان مندهشًا من جلالة جماليات البر فيها؟

بل إنني كنت أقنع نفسي وأقول مؤكدٌ أن الإمام مالك ما استحضر هذه الاستعارة البلاغية القرآنية في ثنايا نقاش فقهي دقيق إلا أنه كان مبهورًا بإيحاءاتها الدلالية .. لابد أن مالك كان يتساءل عن مغزىٰ العلاقة بين (خفض الجناح) و(الذل) .. وهكذا لعلي كنت أبحث عن شرعية تفكير ..

ولا يقتصر استحضار السلف لنصوص التذلل للأبوين في ثنايا الفتاوىٰ الفقهية .. بل إن أئمة السلف كان يدققون في سلوكيات البر بسمو استثنائي ..

في واحدة من أعجب القصص التي مرت بي أن التابعي

---

(١) القرافي، الفروق، (ف ٢٧٠).

الجليل ميمون بن مهران الذي روىٰ عن أبي هريرة وعائشة وغيرهم، رزقه الله بابن عالم، وهو الحافظ عمرو بن ميمون بن مهران (ت١٤٥هـ)، وهو من رجال الصحيحين، وكان هذا الابن بارًا بأبيه، وقد جاء في ترجمته:

(قال الحلبي: حدثني عمرو بن ميمون بن مهران، قال: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة، فمررت بجدول، فلم يستطع الشيخ يتخطاه، فاضطجعت له، فمر علىٰ ظهري)[1].

فانظر إلىٰ هذه الصورة الرفيعة من خفض جناح الذل .. فحين جاء الأب الذي أرعدت السنون مشيته فما عاد يقوىٰ أن يعبر جدول ماء .. تحول الابن إلىٰ جسر يغمر نفسه في الطمي كي يخطو والده فوقه بقدميه ..

يا الله .. عليك رحمات ربي يا عمرو بن ميمون .. أكنت محظوظًا أن لم تر شابًا يستكثر أن يدفع عربة والده المُقعد تحت سياط الظهيرة أمام مبنىٰ الجوازات؟!

يا شيخنا عمرو بن ميمون .. أكانت فطرتك ندية فلم يعكرها خبر شاب يستثقل مرافقة والده في مستشفىٰ .. ينظر لوالده المغطىٰ نصفه والمكشوف نصفه الأعلىٰ لأنابيب الحياة .. ويسارق النظر لرسائل أصحابه في الجوال تستحثه للنزهة وتراوده بصور ربيعية .. فيتكلف الأعذار ليركب الريح مع أصحابه في مسامرات الضياع؟!

---

(١) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، ص(٦١/ ٣٥٢).

إيهٍ .. يا عمرو بن ميمون .. اضطجعت في جدول الماء فوق الطين ووالدك يدوسك بقدميه ليعبر الجدول .. أكنت يا عمرو بن ميمون أحد أنواع البلاغة البشرية التي يتحدث عنها قول الله ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾؟

ومن أغبىٰ الأوهام المنتشرة اليوم توهم أن «بر الوالدين» مربوط بكمية الخدمات الحسية المادية .. واحرقتاه من هذا الوهم .. يبدو أن عصر الماديات في أحسن أحواله لا ينتج إلا تدينًا ماديًا أيضًا ..!

لا .. بر الوالدين ليس مقصورًا علىٰ الخدمات المادية .. بر الوالدين هو «خفض جناح الذل» لهما قبل كل شيء .. البر المعنوي يفوق قيمة البر المادي بقدر ما تفوق الوجاهة قيمة الخبزة .. ألا ترىٰ الرجل الحر يتضور جوعًا وينشلّ لسانه قبل أن يكتب معروض استجداء؟!

ألا ترىٰ الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها ..

إنها القيم المعنوية التي قال عنها دنقل يومًا: «هي أشياء لا تشترىٰ» ..

هذه النفحات المعنوية ليست إلا بعض أنفاس بيانية من دلالات «واخفض لهما جناح الذل» ..

الإمام الحافظ عبد الله بن عون (ت١٥١هـ) من كبار أتباع التابعين، فقد أدرك طبقة من تأخرت وفاتهم من الصحابة لكن لم

يسمع منهم، وهو إمام أهل البصرة في زمانه، وشيخ الأئمة المشاهير الكبار كشعبة بن الحجاج وعبد الله بن المبارك.

وبالنسبة لي فمن أكثر المواضع التي كانت تبهرني في منزلة ابن عون أن الإمام مسلم في مقدمته الشهيرة لصحيحه لما ذكر «أئمة السلف ممن يستعمل الأخبار، ويتفقد صحة الأسانيد وسقمها»، ثم أراد التمثيل لذلك، ذكر ستة نماذج من أئمة الحديث، كان أحدهم ابن عون! ومن له صلة بعلوم السنة يدرك دلالات هذا التمثيل ..

والمراد أن الحافظ عبد الله بن عون هذا ممن امتزج بروحه دلالات قول الله ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ .. ووقف علىٰ دقائق تجليات هذه الآية بحساسية شريفة .. حيث لاحظ رحمه الله أن مما يدخل في خفض جناح الذل للوالدين «مراعاة مستوىٰ الصوت»!

وهذه هي القيم المعنوية الراقية لمعنىٰ بر الوالدين حقًا ..

فقد جاء في ترجمته رحمه الله: (**عن عبدالله بن عون: أنه نادته أمه فأجابها، فعلا صوتُه صوتَها؛ فأعتق رقبتين**)[1] ..

لعلك تتذكر الآن أن الله في كتابه جعل عتق الرقبة من الكفارات في المناهي العظيمة، كقتل الخطأ والظّهار والوطء في نهار رمضان ونحوها، فانظر كيف لما صار صوت ابن عون أعلىٰ من صوت أمه .. وهو إنما رفع صوته ليستجيب لندائها فقط ..

---

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(٢/ ٣١٨).

ولم يكن رفع صوته جدالًا أو معارضةً .. ومع ذلك حاسب هذا الإمام العظيم نفسه .. وكفّر عن أمرٍ لا يعده أكثر الناس إلا سلوكًا طبيعيًا .. ومع ذلك كله أعتق هذا الإمام رقبتين تكفيرًا عن هذا العمل!

واغوثاه .. من شابٍ يصرخ من غرفته في الدور الثاني علىٰ والدته مستبطئًا غداءه! ويتذرع بأنه مرهق ومتعب «وما هو مروِّق»!

وكيف لا تتفطر الأكباد من شابٍ يتفنن في قرع أبواق سيارته يستعجل والدته الخروج من المنزل ليذهب بها لمشوار التمسته منه! وترىٰ الوالدة المسكينة تتقافز تجمع أغراضها مشوشة الذهن تحت ضغط منبهات سيارته!

وابن عون يعتق رقبتين لأن صوته أرفع من صوتها وهو يستجيب لندائها! أي فارق فلكي بيننا وبين القوم؟!

وجاء هذا المعنىٰ أيضًا عن التابعي الجليل محمد بن سيرين (ت١١٠هـ) .. حيث كان يطبق مفهوم «خفض جناح الذل» في مخاطبة والدته .. فكان **(إذا كلم أمه كلمها كالمصغي إليها بالشيء)**[١]، و**(إذا كان عند أمه، ورآه رجل لا يعرفه، ظن أن به مرضًا من خفضه كلامه عندها)**[٢].

ومن تجليات «خفض جناح الذل» كمال الأدب في طريقة

---

(١) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، ص(٥٣/ ٢١٦).

(٢) المصدر السابق، ص(٥٣/ ٢١٧).

النظر للوالدين .. وخضوع العيون للعيون .. وهذا من عيون تفسيرات السلف لهذه الاستعارة القرآنية .. فقد روي عن عطاء وعروة من ضمن تفسيرهم لهذه الآية أنهما قالا: **(ولا تحدّ بصرك إليهما، إجلالًا وتعظيما)** خرّجه ابن أبي حاتم وغيره عنهما.

وجاء هذا المعنىٰ عن عائشة مرفوعًا: **(ما بر أباه من حدّ إليه الطرف)** لكنه معلول بصالح بن موسىٰ.

وقد أشار المناوي إشارة بديعة لهذا المستوىٰ من بر الوالدين بنمط نظر العيون للعيون .. إذ يقول المناوي في فيض القدير: **(العقوق كما يكون بالقول والفعل؛ يكون بمجرد اللّحظ المُشعِر بالغضب)**[1] وهو داخل في عموم آية خفض جناح الذل .. لأن النظر شزرًا ليس إلا دخانًا خارجيًا للهيب استعلاء يمور في الباطن ..

أي مسافة تربطنا بقوم يدققون في مجرد الخشونة البصرية للوالدين .. وفينا من يتفنن في مقطوعات التذمر لوالدته لأنه فتح دولابه ولم يجد ملابسه قد غسلت وكويت في التوقيت المطلوب!

وهذه المشاهد المبهرة لأئمة السلف في فهم دقائق الآفاق الدلالية لخفض جناح الذل مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بعمق علم السلف بمنازل العبادات التي يحبّها الله .. وقد كان للإمام التابعي الجليل محمد بن المنكدر شقيقٌ اسمه عمر بن المنكدر .. ومحمد اشتهر بالعلم والرواية فقد روىٰ عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس

---

(١) المناوي، فيض القدير، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ص(٥/ ٥٥١).

وغيرهم، بينما اشتهر عمر بالعبادة والتنسك وغلبت عليه .. وروىٰ الإمام ابن سعد في طبقاته بإسناده قال: (**قال محمد بن المنكدر: بات عمر يصلي، وبت أغْمِزُ رجلي أمي، وما أحب أن ليلتي بليلته**)[1].

هذا هو الفقه الدقيق في مراتب الأعمال .. فقد بقي الإمام ابن المنكدر عامة ليله يدلّك رجلي أمه .. ويخفف إعياءها .. ويطيب خاطرها .. ويؤانس وحدتها .. ويتقرب إلىٰ الله بذلك .. وأخوه عمر صافٌ قدميه بين يدي الله يصلي الليل .. ومع ذلك ما ترك محمد ابن المنكدر رجلي أمه بل صرح أنه يعتقد أن بر الوالدين أجل في ميزان الله من التهجد ..

ولنكن صرحاء مع أنفسنا ونعترف أن هذه المقارنة بين عمل محمد وعمر ابني المنكدر هي مجرد مقارنة تاريخية لا صلة لنا بها .. أنا أخجل أصلًا من أن أطرح هذه المقارنة باعتبارها مرتبطة بواقعنا .. فهؤلاء يتنافسون بين إحياء الليل في التهجد أم إحياء الليل في بر الوالدين .. وكلاهما بالنسبة لنا اليوم خارج النمط المألوف في حياتنا الاجتماعية أصلًا إلا من رحم الله!

وتمر بالمرء قرارات كثيرة في حياته .. في حياته العلمية والعملية .. تحديد تخصص دراسي، قبول عرض وظيفي، شراء مسكن أو مركب، الخ .. وقد يكون أحد الوالدين رافضًا للقرار

---

(١) ابن سعد **الطبقات الكبرىٰ**، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية، ص(٥/٣٥٨).

.. فيشعر الابن أن أباه أو أمه ليس لهما اطلاع كافٍ يخولهما فهم الأمر ورفضه .. فيدير مقود شأنه باتجاه ما قرر ولا يفكر في استرضاء والديه أولًا .. وغالب هذه القرارات يُنزع منها البركة .. والعاقل الحصيف هو الذي يسترضي والديه قبل أن يقدم .. فإن لم يرضيا فمن يتق الله يجعل له مخرجا .. ولا أقبح من الاستخفاف باسترضاء الوالدين .. والشعور أنهما لا يدركان ما يدرك الابن ..

وإذا تداول الناس مسألة «أثر التقوىٰ علىٰ العلم» فإنهم يذكرون عبارة الإمام أحمد الشهيرة التي رواها المروذي أن أحمد قال: **(عبد الوهاب الوراق رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق)** وعبد الوهاب هذا له ابن اسمه الحسن، وهو أحد المقرئين من تلاميذ الدوري، وكان ابنًا بارًا، وحدث له مع أبيه قصة، يحدّث الحسن عن نفسه قائلًا:

(كنت قد اعتزمت إلىٰ الخروج إلىٰ «سر من رأىٰ» في أيام المتوكل، فبلغه -أي أباه- ذلك، فقال لي: يا حسن ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقلت: يا أبت، ما أريد بذلك إلا التجارة، فقال لي: إنك إن خرجت لم أكلمك أبدًا، قال: فلم أخرج وأطعتُه، فجلست، فرزقني الله بعد ذلك، فأكثرَ وله الحمد)[1].

فانظر كيف أثمر خفض جناح الذل للوالدين في قرار تجاري البركة في الرزق، فوجد في طاعة والده بركة في ماله، كان

---

(١) الخطيب، تاريخ بغداد، تحقيق بشار معروف، دار الغرب، ص(١٢/ ٢٨٤).

سيفقدها لو صعّر خدّه وشمخ برأيه الشخصي . .

إظهار الاحترام لرأي الأبوين، وإجلالهما، وإظهار الاستفادة من خبرتهما، والصدور عن توجيههما: هي جنة البر التي من لم يدخلها لن يعرف ماذا تعني هذه الاستعارة القرآنية ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ . .

وكم ترىٰ في الشبّان من يسعىٰ لإظهار جهل والديه وأنهما لا يفهمان الجيل الجديد بل ربما رأيت الشاب يستعرض بمصطلحات شبابية كالمستعلي علىٰ والده أنه لا يفهمها . .

وكم ترىٰ في الفتيات من إذا دخلت المرحلة الثانوية والجامعة صارت تلمز ذوق والدتها . . وتظهر لها أن فلانة من قريباتها أحسن ذوقًا منها . . تظن أن هذه مجرد تقييمات عابرة . . ولا تعرف جرح الكبرياء الذي تغرزه في خاصرة والدتها بلا مبالاة . . أبَعْدَ كل هذه السنوات التي طافت بها والدتك الأسواق لتجعلك شامة في عيون قريناتك . . تأتين اليوم وترمين العبارات اللاذعة عن ذوق والدتك؟!

وبرغم كل هذه الصور البائسة اليوم في عدم التفطن لدقائق قول الله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فما زال في الأمة خير ولله والحمد . . وما زالت صور من البر يتناقلها الناس اليوم سُرُجًا يستضاء بها في سماء المادية الكالحة في هذا العصر . .

المجرّات سلالم اليقين

في منتصف القرن العشرين أطبقت علىٰ انجلترا شهرة عالم الفلك والفيزياء الانجليزي «جيمس جينز» (ت ١٩٤٦م)، وقد تنقّل جينز في حياته الأكاديمية بين جامعة كامبردج وجامعة برنستون، وكان بروفيسور (الرياضيات التطبيقية) في جامعة برنستون.

وكان له إسهامات رئيسية في حقلي الفيزياء والفلك، وخصوصًا في تطوير بعض المسائل في مجال الأشعة (radiation)، وتخلّق وتطور النجوم (stellar evolution)، وانتقد نظرية لابلاس في تكون النظام الشمسي واقترح فرضية بديلة، ونحو ذلك.

وسميت باسم جينز عدد من المكتشفات العلمية، منها قانون فيزيائي يسمىٰ **(قانون رايلي-جينز)** (Jeans law-Rayleigh) حيث ساهم جينز في تطويره وهو قانون يصف الإشعاعات الطيفية في الموجات الكهرومغناطيسية.

ومن المكتشفات التي سميت باسمه **(كتلة جينز)** (Jeans mass)

وهي نظرية تتعلق بنشأة النجوم، حيث تمثل الحد الأدنىٰ لكتلة السحابة الغازية التي ينشأ عن انكماشها نجم جديد.

وكذلك فوهة قمرية (lunar crater) اكتشفت علىٰ سطح القمر سميت باسمه (فوهة جينز)، وكذلك فوهة مريخية (Martin crater) اكتشفت علىٰ سطح كوكب المريخ سميت باسمه أيضًا.

وأي قارئ لحياة «جيمس جينز» العلمية يلاحظ فورًا أنه كان يقف علىٰ هذه التخوم بين الكوسمولوجيا (الكونيات) والفيزياء؛ بسبب التحام هذين العلمين في العصور الأخيرة، فكثير من الفلكيين فيزيائيون، وكثير من الفيزيائيين فلكيون، ولذلك يقول الفلكي الأمريكي «لويد متز» (ت ٢٠٠٤م) في كتابه قصة الفيزياء:

(الفلك أصبح اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ فرعًا من الفيزياء، ويكفينا لتأكيد ذلك أن نلاحظ العلاقات القائمة بين فيزياء الطاقة العالية والكونيات (الكوسمولوجيا)، أو بين تطور النجوم والفيزياء النووية، أو تلك العلاقات بين بنية المجرات وتحريك السوائل، فهي تظهر مدىٰ الرابطة المتينة بين فرعي المعرفة هذين، بل إن قصة الفيزياء تبدأ بعض نواحيها بالفلك اليوناني)[١].

وليس من العسير إدراك وتفسير سبب هذا التداخل والاشتراك بين مباحث الفيزياء والفلك والتي يشير إليها متز وزميله في النص

(١) لويد متز وجيفرسون ويفر، قصة الفيزياء، ترجمة طاهر تربدار وزميله، دار طلاس، ص(٢٥).

السابق، ذلك أن الفلك يعنىٰ بالأجرام السماوية، والفيزياء تدرس الحركة وسلوك المادة وطاقتها خلال الزمن والمكان، ومن الطبيعي أن تدرس الفيزياء حركة وسلوكيات هذه الأجرام، ومن هاهنا يجد الفيزيائي نفسه أحيانًا فلكيًا، ويجد الفلكي نفسه أحيانًا فيزيائيًا.

ولم يكتف «جيمس جينز» بكتابة الأطروحات المتخصصة، بل كان ينتمي إلىٰ قطاع من المتخصصين يؤمنون بأهمية تبسيط (العلوم الطبيعية) للقارئ العام، كما كتب الفيزيائي البريطاني (ستيفن هوكنغ) مثلًا كتابه المشهور (**موجز تاريخ الزمن: من الانفجار الكبير إلىٰ الثقوب السوداء**) والذي بسّط فيه أسس الكوسمولوجيا (الكونيات)، وبيعت منه أكثر من عشرة ملايين نسخة، وتُرجم للغات العالمية.

ومثل هذا النمط من المؤلفات التي تخاطب القارئ العام تخلق للمؤلف شهرة في الإعلام باعتباره شارح ومفسر **للثورات العلمية** في زمنه، وقد لعب «جيمس جينز» هذا الدور فعلًا، وخصوصًا في حقل الكوسمولوجيا (الكونيات) وهو حقل شديد الجاذبية والإبهار للقارئ العام.

وينتمي «جيمس جينز» للتيار الذي يعطي الفلسفة (**موقعًا ذيليًا**) بالنسبة للعلوم الطبيعية، وأن الفلسفة ذات هوية تبعية باعتبار أن العلوم الطبيعية تكتشف وتبتكر وتخترع، والفلسفة تعلّق لاحقًا فقط علىٰ ما تم اكتشافه، فالفلسفة لدىٰ هذا التيار، مجرد «تفسيرات» تلاحق تطورات العلوم، كما يقول جينز مثلًا:

(الفلسفة في أية فترة زمنية، مرتبطة دومًا، وبشكل كبير؛ مع العلم في نفس هذه الفترة، لذلك فإن أي تغير رئيسي في العلم ينتج ردود فعل في الفلسفة)[1].

وهذا الرأي التبخيسي للفلسفة في مقابل إجلال العلوم الطبيعية، والذي يتبناه الفيزيائي/ الفلكي «جيمس جينز»، ليس رأيًا مبتكرًا له، بل هو اتجاه معروف في الفكر الغربي، ويشيع خصوصًا بين الباحثين في الحقول التجريبية، ويمكن أن نجد اعترافًا بهذا الدور التبعي/التفسيري للفلسفة في التشبيه الذي صاغه رأس الفلسفة الألمانية «هيغل» (ت ١٨٣١م)، حين وصف الفلسفة في نهاية مدخل كتابه عن فلسفة الحق بقوله: (بومة مينرفا لا تنشر أجنحتها وتطير إلا حين يخيم المساء)[2].

ومينرفا هي آلهة الحكمة والفلسفة في الأساطير الرومانية، وكان لها بومة، لأن البومة في تصوراتهم رمز للحكمة باعتبار سلوكها الصامت المراقب طوال النهار، واختيارها المواقع غير المأهولة.

ومقصود هيغل بهذا التشبيه أن الفلسفة لا تبدأ في العمل إلا بعد انتهاء الأحداث والأعمال في النهار، فتأتي لاحقًا لتفسر فقط، ومقتضىٰ هذا التشبيه أن الفلسفة ذات (مرتبة تفسيرية) فقط، لا **(صانعة للأحداث)**.

---

(١) J. Jeans ،*Physics and philosophy*، Cambridge, 1943, p. 2

(٢) Hegel ،*Philosophy of right*، p.xxi

وهناك شواهد أخرىٰ كثيرة في الفكر الغربي لمن يميل لهذا الاتجاه التقزيمي لمكانة الفلسفة في مقابل تعظيم العلوم الطبيعية ونتائجها في الطب والتكنولوجيا ونحوها، وليس هاهنا محل بسط هذه الشواهد.

ولذلك تجد أمريكا -مثلًا- المتفوقة في العلوم والتقنية يقل فيها الفلاسفة، بينما أوروبا التي تراجعت مقابل التفوق الأمريكي يكثر فيها الفلاسفة، حتىٰ أن عالم النفس الأمريكي جرانفيل ستانلي (ت ١٩٢٤م) في مقالته «الفلسفة في الولايات المتحدة» التي نشرها في فصلية (مايند) حين كان يطرح تشخيصًا مبكرًا للواقع الفلسفي في أمريكا يقول: (الفلاسفة في أمريكا أندر من الثعابين في النرويج)[١] لكنه يرجع ذلك لحداثة عمر الولايات المتحدة.

وقد استعرض ستانلي تفسيرًا لهذه الظاهرة -أعني محدودية الفلاسفة في أمريكا- مرتبطًا بعمر البلد، ومزاج الأعمال والاستثمار العملي.

وفي تقديري الشخصي أن من أهم كتب جيمس جينز كتابه «الفيزياء والفلسفة» (Physics and philosophy) وهو دراسة مقارنة بين طريقة عمل الفيزيائيين ومنتجاتهم العلمية، وطريقة عمل الفلاسفة ومنتجاتهم التي قدموها، ويحاول جينز في كتابه هذا أن يثبت وجهة نظره تفصيلًا حول تواضع ثمرات الفلسفة مقارنةً بالنتائج

---

(١) G. Stanley Hall ،*Philosophy in the United States*، Mind، p. 95

التي قدمتها لنا الفيزياء، وفي هذا الكتاب مواضع صادمة للقارئ، مثل الموضع الذي شرح فيه نظرية كانط وحلل جدواها وأنه يرىٰ أنها لم تضف شيئًا ذا بال، ثم حاول أن ينقل الفلسفة إلىٰ تفكير جديد علىٰ ضوء نتائج الفيزياء كمفهوم السببية وحرية الإرادة وغيرها.

وإذا وضع الباحث كتاب جينز هذا في سياقه التاريخي فسيستوعب بالضبط خلفيات هذا الطرح، فكتاب جينز هذا (الفيزياء والفلسفة) وُلِد في أيام (ثورة العلوم الطبيعية) وتطور الحياة الاجتماعية بناء علىٰ المكتشفات والابتكارات التي تضخها في حياة الناس، وكانت هذه المرحلة أصعب اللحظات التي بدأت تعيش فيها الفلسفة (**أزمة الجدوىٰ**)، فصار يتساءل كثير من الباحثين في الحقول التجريبية خصوصًا عن (**جدوىٰ الفلسفة**) ويرون أنها لم تقدم شيئًا؟

ومن أمتع المناقشات التي حاولت دراسة هذه الظاهرة والرد علىٰ المخالفين فيها، ورقة الفيلسوف الانجليزي برنارد ويليامز (ت ٢٠٠٣م) وكانت بعنوان «حول بغض وازدراء الفلسفة»، وقد نشرت في مجلة (لندن ريفيو) وقد استفتحها ويليامز بقوله (**حيثما وجد موضوع فلسفي وجد من يكرهه ويزدريه**) والرصد المثير الذي عرضه ويليامز هو قوله في مقالته (**هذه الأيام، معظم الذين يتخذون هذا الموقف ضد الفلسفة ليسوا متدينين، بل علماء!**)[١].

---

(١) B. Williams ،*On hating and Despising philosophy*، LRB، 1996, p. 16

وبطبيعة الحال لم يكن ويليامز مسرورًا بهذه الظاهرة، بل خصص هذه الورقة للرد علىٰ هذه الاتجاه المستخفّ بالفلسفة بعد ثورة العلوم الطبيعية.

هذه الظاهرة شديدة الشيوع في الفكر الغربي العلمي، أعني ازدراء الفلسفة وتعظيم العلوم الطبيعية، تقودنا إلىٰ التساؤل:

لماذا إذن شاع بين الشباب المثقف العربي، المعجب بالغرب؛ القراءة في «التراث» الفلسفي الغربي، كفلاسفة القرون ١٧-١٨-١٩، والضعف في التكوين العلمي الطبيعي؟

الحقيقة أن هذه الظاهرة تستحق الرصد والتحليل، وسأحاول أن أقدم تفسيرًا لها، ففي تقديري أن هؤلاء الشباب العربي قرؤوا للمفكرين العرب الذين درسوا الفلسفة في الغرب، ولم يقرؤوا لمختصي العلوم الطبيعية من العرب، فنقلهم المفكرون العرب أصحاب التكوين الفلسفي إلىٰ التراث الفلسفي الغربي، وصوروا لهم أن التقدم المادي الغربي كله نتيجة للفلسفة الغربية، وهذا التصوير نتيجة طبيعية لكون هؤلاء المفكرين العرب يسوقون بضاعتهم.

ولذلك وجدنا شبابًا عربيًا يتخرج من كليات الطب والهندسة والعلوم ثم يصرف وقت فراغه في قراءة التراث الفلسفي الغربي (القرون ١٧-١٨-١٩)، بدلًا من أن ينشر الثقافة العلمية الحديثة والمعاصرة في بلده! وهذه ظاهرة مدهشة فعلًا، ومحزنة في نفس الوقت، فالمؤهلون بالعلوم التي يحتاجها مجتمعنا من الجادّين في

القراءة يترك بعضهم ترقية مجتمعنا بتخصصه، ويذهب يحفر في غبار التاريخ الغربي العتيق!

ويمكن للقارئ أن يتابع بعض المقالات الفلسفية في صحفنا المحلية، أو الندوات الفلسفية في محيطنا الخاص؛ وسيلاحظ أن الرموز الفلسفية الغربية المتداولة غالبها الساحق ينتمي إلىٰ «الماضي» الفلسفي الغربي، وليس إلىٰ «الراهن» والحديث والمعاصر، وآخر ما توصل إليه العلم!

سيلاحظ الراصد للحالة الفلسفية العربية والمحلية خصوصًا - مثلًا- أن الرموز الفكرية الفلسفية المتداولة بينهم هم رموز القرن السادس عشر (مارتين لوثر)، أو رموز القرن السابع عشر (فرانسيس بيكون، ديكارت، توماس هوبز)، أو رموز القرن الثامن عشر (جون لوك، هيوم، روسو، كانط) أو رموز القرن التاسع عشر (بنتام، هيغل، شوبنهاور، كيركيجارد، سبنسر، نيتشة) ونحو هؤلاء، ويعرف القارئ أن التطور العلمي المعاصر تجاوز بمسافات فلكية أفكار وتصورات هؤلاء الفلاسفة الذين عاشوا عصور التخلف التكنولوجي.

ولذلك يمكن القول أن الشباب الذين طلّقوا القراءة في العلوم الشرعية، وانصرفوا للقراءة في التراث الفلسفي الغربي؛ أنهم انتقلوا من (تراث) إلىٰ (تراث آخر) فقط، وهم يتخيلون أنهم انتقلوا من الماضي للحداثة!

وإذا كان بعض هؤلاء الشباب يسمي الكتب الشرعية كتبًا

صفراء، فالذي فعله هو أنه انتقل فقط من كتب صفراء شرقية، إلىٰ كتب صفراء غربية! فما زال في عالم الصُّفرة بحسب معاييره!

لكن ما السبب الذي دعا الشباب المثقف العربي للإقبال علىٰ كتب الفلسفة العربية والعزوف عن الكتب العلمية العربية؟ ربما يعود السبب إلىٰ مبادرة المفكرين الفلسفيين العرب، وتكاسل المختصين العرب في العلوم الطبيعية عن تبسيط العلوم للقارئ العام، وربما لأن العلوم تحتاج إلىٰ معامل ومختبرات وأجهزة وتمويل للبحث العلمي، بخلاف الفلسفة التي هي (نشاط تأملي ذهني محض) ينهي المؤلف فيه كتابه في غرفته الخاصة، وبسبب تفريط النظم السياسية العربية في تمويل البحث العلمي اتجهت العقول إلىٰ الاشتغال بالفلسفة كتعويض.

علىٰ أية حال .. ما سبق كله كان استطرادًا غير مقصودٍ بالأصالة، وإنما جرّنا إليه توجّه «جيمس جينز» إلىٰ تبخيس الفلسفة وتعظيم العلم في كتابه (الفيزياء والفلسفة)، فاضطرنا الحديث إلىٰ عرض هذا الاتجاه في الفكر الغربي.

وإنما كان المراد الأساسي من السطور السابقة هو التعريف الموجز فقط بالفيزيائي/الفلكي «جيمس جينز»؛ تمهيدًا لعرض حوار هام جرىٰ بينه وبين طرف آخر، وهو عالم الرياضيات الهندي (عناية الله المشرقي).

هذا الطرف الآخر في الحوار وهو عناية الله المشرقي (ت١٩٦٣م) قد عُرِف بولعه الغريب بالرياضيات، وأنهىٰ الماجستير

في الرياضيات وعمره (١٩) سنة وحطم الأرقام القياسية السابقة له، وفي نفس العام (١٩٠٧م) وقد أتم التاسعة عشرة من عمره؛ سافر إلىٰ بريطانيا لمواصلة دراساته في الرياضيات في جامعة كامبردج، وأنهىٰ خلال وجوده في كامبردج دراسة عدة تخصصات موازية في اللغات الشرقية والعلوم الطبيعية!، ومكث في كامبردج خمس سنوات إلىٰ العام ١٩١٢م، ثم عاد بعدها إلىٰ الهند.

ولما بلغ عناية الله المشرقي بحر الثلاثين خطرت له فكرة تفسير القرآن علىٰ ضوء مكتشفات العلوم الطبيعية، ونفذ الفكرة فعلًا، وأنهىٰ المجلد الأول منه وعمره (٣٦ سنة) في عام ١٩٢٤م، وسماه (التذكرة)، فلفت الأنظار بعمله هذا، وتم ترشيحه لجائزة نوبل، إلا أن لجنة الجائزة اشترطت ترجمة العمل لأحد اللغات الأوربية، فرفض عناية الله الجائزة، وقال: (لا أريد جائزة لا تعترف بلغتي الأوردية!) برغم أنه درس في كامبردج أصلًا عدة تخصصات، وشأن الترجمة لا يكلفه شيئًا، لكنها أنفة العالم الهندي.

وانخرط عناية الله في المعترك السياسي، وتقلد عدة مناصب حكومية، ثم استقال وأسس حزبًا سياسيًا اسمه (حركة الخاكسار)، وأنشأ صحيفة أسبوعية باسم (الإصلاح)، وسجن عدة مرات.

وللأسف، لم تكن الصورة مشرقة إلىٰ هذا الحد، فقد كان لدىٰ عناية الله بعض التصورات الخاطئة حول السنة النبوية، ومفهوم اختلاف النبوات في التشريع، ونظرية التفسير الإسلامية،

وغيرها، وللتوسع حول شخصية عناية الله المشرقي ودوره يمكن مراجعة الكتب المتخصصة في ترجمته[1].

لكن .. دعنا نصل الآن إلىٰ جوهر المراد من هذا التعريف بالشخصيتين، وهما: العالم الفيزيائي/الفلكي الانجليزي (جيمس جينز)، وعالم الرياضيات الهندي (عناية الله المشرقي).

ففي نفس الفترة التي قدم فيها عناية الله المشرقي إلىٰ كامبردج لمواصلة دراساته في الرياضيات، التقىٰ بجيمس جينز حيث كان جينز يدرّس في الجامعة، وتعرف عليه، وقد روىٰ عناية الله المشرقي قصة مدهشة وقعت له مع جينز، وقد نشرت هذه القصة في مجلة (نقوش) الباكستانية، في عددها الخاص المكرس لسيرة عناية الله المشرقي، ثم نقلها عن المجلة المذكورة المفكر الهندي (وحيد الدين خان) في كتابه الذي ترجم للعربية بعنوان (الاسلام يتحدىٰ: مدخل علمي إلىٰ الإيمان)، وأصل الكتاب في النسخة الانجليزية بعنوان (الله يتجلىٰ: أدلة الله في الطبيعة والعلم) وذكر في مقدمته أن هذا الاسم (الله يتجلىٰ) مأخوذ من آية في الانجيل، ولكن في الترجمة العربية جعل العنوان (الإسلام يتحدىٰ).

حسنًا .. دعنا الآن ننقل هذا الحوار الطويل، يقول وحيد الدين خان في كتابه «الاسلام يتحدىٰ» ما يلي:

---

(١) alik M., *Allama Inayatullah Mashraqi: A Political Biography*, Oxford University Press, 2000.

(وسوف أختم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي وهو يقول:

كان ذلك يوم أحدٍ، من أيام سنة ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرىٰ الفلكي المشهور السير جيمس جينز-الأستاذ بجامعة كمبردج-ذاهبًا إلي الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوتُ منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرىٰ، فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر!.

فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته علىٰ الفور.

فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم مثلك؛ أن يتوجه إلي الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظةً، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي.

وعندما وصلت إلىٰ داره في المساء؛ خرجت ليدي جيمس، في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكًا في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟.

ودون أن ينتظر ردّي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها، وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتي إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائمًا، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله! عندما ألقي نظرة علي روائع خلق الله، يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: «إنك لعظيم!» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلي الكنيسة؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلًا: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانًا في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جدًا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم.

فهز رأسه قائلًا: بكل سرور.

فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

فصرخ السير جيمس قائلًا: ماذا قلت؟ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؟ مدهش! وغريب وعجيب جدًا!!، إن الأمر الذي كشفتُ عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك؛ فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحىٰ من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلًا: لقد كان محمد أميًا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «الله» هو الذي أخبره بهذا السر .. مدهش ..! وغريب وعجيب جدًا)[1].

هذا الحوار المثير الذي وقع بين الفيزيائي/الفلكي جيمس جينز، وعالم الرياضيات الهندي عناية الله المشرقي، له دلالات وفيه مواضع لا ينقضي منها العجب.

فهذا الانفعال العميق الذي وقع من «جينز» وهو يتعمق في دراسة المعلومات الفلكية ويستعرضها إلىٰ درجة الارتجاف وانهمار الدموع مشهدٌ يثير كوامن الإيمان في النفوس البشرية.

وبسبب أن عناية الله كان صغير السن حين التقىٰ بجينز، وانبهر بإيمانه بالله، فقد كان لذلك أثر عجيب في تعميق اليقين بالله في نفس هذا الفتىٰ، حتىٰ اعتُبِر جينز ملهمًا له.

وهذا الكون العجيب بمجراته ونجومه وكواكبه وأقماره ومداراته ونظامه دفع البروفيسور جينز إلىٰ البحث عن أقرب دين

---

(١) وحيد الدين خان، **الإسلام يتحدىٰ: مدخل علمي إلىٰ الإيمان**، ترجمة ظفر الإسلام خان، مكتبة الرسالة، ص(٢٠٣)

يعرفه فتمسك النصرانية، فكيف لو تعرف علىٰ كتاب الله المحفوظ ورأىٰ ما فيه من عجائب الإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز البلاغي، والإعجاز الروحي.

ثم انظر مع كل هذا الانبهار بعجائب الكون ونظامه، ازداد جينز دهشة حين سمع قول الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، وشهد أن القرآن حق! فما أعجب ما يصنعه القرآن في النفوس البشرية!

ومن العجائب في هذا الحوار أن تنظر كيف يجد البروفيسور «جينز» في فطرته البشرية ما يؤيده وهو يناجي الله بالتعظيم ويقول لله «إنك لعظيم»! فكيف لو عرف هدي رسول الله ﷺ في مناجاة الله بأشرف الأذكار والمقامات وقد تفطرت قدماه ﷺ؟!

ثم انظر كيف يحكي البروفيسور «جينز» عن السعادة والسكينة التي تغمر نفسه حين يناجي الله بالتعظيم، فكيف لو ذاق سكينة القرآن وغمرته حلاوة التهجد ولذة الخشوع والانطراح بين يدي الله؟!

كل هذه المعاني في تعظيم الله تكشفت للبروفيسور «جينز» وهو يتأمل فقط ملكوت السموات والأرض، حتىٰ بلغ أن شهد للقرآن أنه حق، وأن نبوة محمد ﷺ حق، ألا صدق الله سبحانه إذ قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

هذه المشاعر التي عصفت بالبروفيسور جينز وهو يتدبر عظمة

ملكوت السموات والأرض، وجمال الفلك، عرضت لكثير من الناس غيره، وسأذكر بعض الشواهد:

فهذا إيمانويل كانط (ت١٨٠٤م) رمز الفلسفة الألمانية، وفي عمله الثاني في ثلاثيته النقدية المشهورة، استفتح خاتمة الكتاب بهذه العبارة ذات الدلالات المثيرة، حيث يقول كانط في كتابه المشار إليه:

(شيئان اثنان يملآن العقل بإعجاب ومهابة متجددين ومتزايدين، كلما كررنا النظر فيهما: الأفلاك المرصعة بالنجوم فوقنا، والقانون الأخلاقي في داخلنا)[١].

حين تتأمل في مشاعر كانط هذه التي يرويها عن نفسه، وتستحضر منزلة كانط المركزية في الفلسفة بعامة، والفلسفة الألمانية بخاصة؛ تصل إلىٰ نتيجة خلابة، وهي انفعال أشد الناس إيغالًا في العلوم العقلية بهذه الآيات الكونية الفلكية في السماء . .

حسنًا . . دعنا نتجاوز هذه الطبقة من أهل العلوم الطبيعية والفلسفية، ولنتأمل في طبقة أرفع منهم وأشرف وأنقىٰ وأزكىٰ وأعلم، وهم سادات العلم والإيمان، وإذا دلفنا إلىٰ هذه الطبقة فلن أستطيع أن أتجاوز قصةً شاهدها الحافظ أبو حفص البزار (ت ٧٤٩هـ) بنفسه، ثم سجلها في كتابه «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية»، الذي تقدمت الإشارة إليه في فصل سابق.

---

(١) Kant I, *The Critique of Practical Reason*, Bibliotech Press, p. 123

وبالمناسبة فكتاب البزار هذا في تقديري هو أعذب الكتب التي ترجمت لأبي العباس، صحيح أن في ترجمة ابن عبد الهادي وابن كثير توسُّعٌ في نواحٍ ومعلومات معينة، لكن البزار نقل أمورًا من دقائق تصرفات ابن تيمية، في ليله ونهاره، لا تجدها عند غيره، وربما يكون السبب في ذلك أن البزار اقترب من ابن تيمية شغفًا بنقل أحواله، وكان ابن تيمية يدنيه منه، كما يقول البزار (**وكنت مدة إقامتي بدمشق ملازمُه جلّ النهار، وكثيرًا من الليل، وكان يدنيني منه حتىٰ يجلسني الىٰ جانبه**)[1]. وإني أغبط كل قارئ لم يقرأ بعد الأعلام العلية، لأن متعة تاريخية تنتظره . .

وهذه القصة التي نقلها البزار عن ابن تيمية تتعلق بموضوعنا عن الفلك، حيث يروي الحافظ البزار برنامج ابن تيمية بعد صلاة الفجر مباشرة، فيقول:

(**ثم يشرع في الذكر، وكان قد عُرِفت عادته لا يُكلِّمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمِع نفسه، وربما يسمع ذكره من إلىٰ جانبه، مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتىٰ ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة**)[2].

---

(١) البزار، **الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ص(٣٨).

(٢) المصدر السابق، ذات الصفحة.

فتأمل كيف كان أبو العباس ابن تيمية يكثر من النظر في ملكوت السموات والأرض بعد صلاة الفجر وهو يذكر الله، يقلب بصره في السماء، لما يتضافر في ذلك من اجتماع أسباب الاستغراق في استحضار العظمة الإلهية، وإنما ورد النهي عن رفع البصر إلىٰ السماء في حال الصلاة كما سبقت الإشارة إليه في فصل سابق، لأنها حال خاصة من الخشوع والإطراق والأدب، وأما في سوىٰ ذلك فلم ينه عنه، بل هو من هدي رسول الله ﷺ، كما كان يقلب وجهه في السماء وهو يلتمس تحويل القبلة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، وذكر الصحابة كثرة رفع النبي صلىٰ الله عليه وجهه إلىٰ السماء، كما في صحيح مسلم (**فرفع -النبي ﷺ- رأسه إلىٰ السماء، وكان كثيرا مما يرفع رأسه إلىٰ السماء**)[١]، وفي السنن كان رسول الله ﷺ (**إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلىٰ السماء**)[٢].

ومن أعظم النماذج في التعامل مع الفلك كمعراج لليقين، والتي تفوق ماذكرناه عن غير الرسل، موقف خليل الله إبراهيم عليه السلام وما جرىٰ له من أحوال مع الأجرام الفلكية . . وقد نص الله في كتابه أنه أرىٰ إبراهيم «ملكوت السموات والأرض» لتحقيق نتيجة

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٣١).

(٢) سنن أبي داود (٤٨٣٧)، وأعله بعضهم بعنعنة ابن إسحاق، وهذا غير دقيق، وهذه طريقة المتأخرين في التدليس، فشيخه يعقوب بن عتبة سمع منه، بل نص ابن المديني علىٰ عدم تدليس ابن إسحاق أصلًا، فهو محمول علىٰ الاتصال، والله أعلم.

واضحة وهي قوله «وليكون من الموقنين» . .

فأي برهان أعظم من هذا البرهان يبين أن الفلك معراج لليقين . . وأن الأجرام السماوية وأحوالها سلالم يصعد بها القلب إلىٰ مدارات الجزم وخلع الارتيابات . . ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

النظر في ملكوت السموات والأرض . . درب ينتهي بصاحبه إلىٰ جنة اليقين . .

وقد دعانا الله إلىٰ هذا النظر في ملكوت السموات والأرض فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

علىٰ أية حال . . من تأمل في قصة الفيزيائي/ الفلكي جيمس جينز وشدة انفعاله بعظمة صنع الله وبدائع نظامه في الفلك حتىٰ انهمرت دموعه، وتأمل عبارة كانط حين تحدث عن تزايد الإعجاب والمهابة كلما كرر المرء النظر في السماء المرصعة بالنجوم فوقنا، وتأمل كيف كان الإمام ابن تيمية يقلب بصره في السماء بعد صلاة الفجر حتىٰ تطلع الشمس . . ثم ضم هذه المشاهد كلها إلىٰ قول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ أدرك شيئًا من عجائب أسرار القرآن في غرس اليقين في النفوس البشرية . . !

وكلما أعاد المرء التدبر والتمعن في العبارة الأخيرة «وليكون من الموقنين» انفتحت له أبواب عظيمة إلىٰ مقام الإحسان، وهو

أرفع مقامات الدين، فوق الإسلام والإيمان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، يعني من شدة اليقين ..

فإذا رأيت النجوم تتدلىٰ بحبال ضيائها إليك فانتهز الفرصة وتسلق بها إلىٰ قمم اليقين ..



للتواصل مع الدار: ص. ب: ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤ - المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٣٩ - فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
المنطقة الغربية: تليفون ٠٢/٦١٤٣٩٢٠ - فاكس: ٠٢/٦١٤٣٩٦٠
البريد الإكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الإلكتروني www.daralhadarah.com.sa
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨



